أريك

ديـوان الثقافتين العربيـة والأرمنيـة

عدد رقم ٩٢ | السنة الثالثة عشر | أبريل ٢٠٢٣

الذكرى ١٠٨ للإبادة الجماعية بحق الشعب الأرمني علي يد العثمانيين الأتراك



April 24
Armenian Genocide Remembrance Day

أريك

نشرة غير دورية تصدرها
جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

رئيس التحرير:
علي ثابت صبري

سكرتير التحرير:
عطا أحمد درغام

العنوان: ٢٦ ش مراد بك - صلاح الدين
مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٢٩١٦٤٤٤ (٠٢)



رابط مجلة أريك الإلكتروني:
https://me-qr.com/l/ArekArabic

رقم الإيداع: ١٨٣٧٤ / ٢٠١٠

إعداد وتصميم:


المحتويات

الموضوع	الصفحة

السادة القراء الراغبون فى الحصول على هذا الإصدار مجاناً، الرجاء موافاتنا بالبيانات الآتية:

الاســـــــم: ....
المـــهـــنـــة: ....
الـــعـــنـــوان: ....
البريد الإلكتروني: ....
التليـــــفـــــون: ....



بقلم: على ثابت صبري

مصر والقضية الأرمنية
١٠٨ عاماً على أم الجرائم في العصر الحديث
محطات وشواهد

مثلت مصر للأرمن وطناً وملجأً وملاذاً، وأسهم الأرمن بامتياز في بناء مصر الحديثة، عندما استعان بهم محمد على باشا في بناء دولته.

ورجع لهم الفضل في تأسيس مدرسة الدبلوماسية المصرية (وزارة الخارجية)، وأول وزير خارجية كان بوغوص بك يوسفيان. ولهم العديد من الإسهامات في مجالات مختلفة .

إلا أن نقطة التحول المحورية في حياة الشعب الأرمني كانت الاصطدام بالطموحات العثمانية التي تنوعت ما بين إسلامية وقومية وتركية، هذا الثالوث من الطموحات أجهز على مستقبل الشعب الأرمني وأدخله في الشتات الكبير.

ارتكبت الدولة العثمانية بكافة توجهاتها أبشع جريمة منظمة ضد الشعب الأرمني كان نتاجها اقتلا ع جذوره من أراضيه التاريخية، وفرضت عليه واقع جيوسياسي ظالم، وتأسست دول وفق هذا الواقع. إلا أن الجريمة في حد ذاتها ستظل وصمة عار في جبين الإنسانية، وذلك حسبما نقلت إلينا من مصادر مختلفة ومتنوعة، حيث تلذذ الجاني بارتكاب أبشع طرق الإبادة ضد الشعب الأرمني الذي جرّد من كل وسائل حمايته.

فبدأ الجاني بقتل العقل الأرمني ليلة ٢٤ أبريل١٩١٥م، ومن بعدها بدأت طوابير الموت للسيدات والأطفال والعجائز إلى صحراء دير الزور، وشهد القاصي والداني بما حدث للشعب الأرمني، ولكن ستظل المصالح هي الفيصل وليس الإنسانية.



مرت الإبادة الأرمنية بثلاث مراحل راح ضحيتها ١,٥ مليون أرمني، ومازال الجاني يُمارس سياسة الإنكار والتجاهل، ويرفض التصالح مع تاريخه، بل أكثر من ذلك، مازال يحارب الأحفاد من خلال مرتكزاته في المنطقة –أذربيجان–، ومازال ناقوس الخطر يدق ويُنذر بإبادة جديدة للأرمن في إقليم ناجورنو كاراباخ (آرتساخ).

وعند هذا الحد، سؤالاً يطرح نفسه : ماذا فعلت مصر للقضية الأرمنية ؟ مصر لم تكن بعيدة عما حدث للأرمن، فقد أفردت جرائدها ما يقرب ٣٦ ألف مقال عن الأرمن

وأرمينيا في الفترة من عام ١٨٧٦م بوادر تدويل القضية، وحتى عام ١٩٢٣م عام اغتيال القضية وغسل القوى الكبرى والأتراك أيديهم من الدم الأرمني في لوزان، هذه المقالات أثبت إنسانية مصر وأنها بحق فجر الضمير الإنساني (أصدرت جمعية القاهرة الأرمنية الخيرية العامة ١٢ مجلداً في مشروع علمي ضخم تحت عنوان الأرمن وأرمينيا في الصحافة المصرية والعربية). وجاء موقف شيخ الأزهر سليم البشرى من مذابح أضنة دليلاً دامغاً على أن الإسلام برئ من التصرفات التركية ضد الأرمن بحجة أنهم مسيحيون وأعداء للدولة، جاءت فتوى شيخ الأزهر بحرمانيه قتل المسيحيين (الأرمن) في اقليم أضنة ليست معبرة عن رأى شيخ الأزهر، بل معبرة عن مؤسسة الأزهر الشريف أهم مرتكز في العالم للإسلام السمح.

أضف أيضاً صدور أول كتاب عن المذابح الأرمنية للكاتب السوري فائز الغصين (المذابح في أرمينيا) من مصر في عام ١٩١٧، ومن بعد ذلك استقبال مصر للاجئين الأرمن في أعقاب المذابح واحتوائهم واندماجهم في المجتمع المصري دون غضاضة، ورغم الأحداث المأسوية التي مر بها الجيل الثاني من الأرمن الذين سكنوا مصر المحروسة، إلا أنهم أسهموا بجلاء في تاريخ مصر في الفترة الليبرالية كأحد روافد القوى الناعمة.

ولا ننسى دور الكنيسة المصرية الأرثوذكسية حينما اعترفت بأن ما حدث للأرمن على يد الأتراك في ٢٤ أبريل ١٩١٥ هي إبادة جماعية، وهناك أيضاً حزب المصريين الأحرار، كذلك هناك مجموعة من نواب مجلس النواب المصري بصدد اعداد مشروع قانون للاعتراف بالإبادة الأرمنية.

على المستوى الرئاسي فإن فخامة الرئيس عبد الفتاح السيسي هو أول رئيس مصري يتكلم عن القضية الأرمنية في المنتديات الدولية ومنها قمة ميونيخ للأمن حيث قال " إن بلاده استضافت في يوم من الأيام منذ مئة سنة أو أكثر الأرمن بعد المذابح التي تعرضوا لها ولم تعاملهم كلاجئين".

رسخ الرئيس السيسي أن مصر لم تستقبل أي مستجير بها كلاجئ، بل يندمج ويتعامل داخل المجتمع المصري ولا يحس بغربة إنها مصر يا سادة .



وأخيراً وليس أخرا، فإن زيارة فخامة الرئيس السيسي إلى أرمينيا كأول رئيس مصري يزور أرمينيا، تعد تطوراً ملحوظاً في العلاقات الرسمية بين البلدين، وفتح مجالات متعددة للتعاون المشترك ارتكازاً على علاقات تاريخية مشرفة، ولسيادتكم كلمة فخامة الرئيس السيسي خلال المؤتمر الصحفي المشترك مع رئيس جمهورية أرمينيا:

" فخامة الرئيس فاهاجن خاتشاتوريان رئيس جمهورية أرمينيا، السادة الوزراء، السيدات والسادة الحضور.

بداية، أود أن أعرب عن سعادتي بتواجدي اليوم في العاصمة "يريفان" كأول رئيس مصري، يزور هذه المدينة الرائعة، منذ إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، التي شهدت مرور ثلاثين عامًا على إنشائها في عام ٢٠٢٢ وهي الزيارة التي تعكس مدى الاهتمام والتقدير، الذي تكنه مصر لعلاقاتها مع أرمينيا، واهتمامها بتطويرها في مختلف المجالات امتدادًا لعلاقات تاريخية لها خصوصيتها المتفردة على المستوى الشعبي تعود إلى استضافة مصر تاريخيًا لعشرات الآلاف من الأرمن الذين سكنوا مصر، وأسهموا إسهامات مقدرة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية وكان لدورهم أطيب الأثر، في إثراء حياة المجتمع المصري .

كما يطيب لي، أن أتوجه بخالص الشكر وعميق التقدير، على كرم الضيافة وحسن الاستقبال،

الذي حظينا به منذ وصولنا إلى أرض أرمينيا الصديقة إذ انعكس هذا المناخ الودي، على أجواء المباحثات، التي عقدتها اليوم مع فخامة الرئيس "فاهاجن"

وقد تم التطرق خلال المباحثات، إلى الطفرة التي حققتها مصر، في مجال إنتاج الطاقة وذلك ليس فقط اتصالًا بمجال الغاز، ولكن أيضًا ارتباطًا بإطلاق "الاستراتيجية الوطنية للهيدروجين الأخضر" بما يجعلها مقصدًا استثماريًا واعدًا، في ضوء توافر موارد الطاقة اللازمة للصناعة وما ترتبط به من اتفاقيات للتجارة الحرة والتفضيلية، مع الدول العربية والإفريقية بما يكسب المنتجات المصنعة في مصر، مميزات تنافسية كبرى .

كما أعربت في هذا السياق عن تقدير مصر، لمشاركة فخامة الرئيس "فاهاجن" في القمة العالمية للمناخ "COP 27" التي عقدت مؤخرًا بـ شرم الشيخ، في نوفمبر ٢٠٢٢ والتي عكست مدى الاهتمام الذي توليه أرمينيا، لقضية المناخ.

وعلى الجانب الاقتصادي، تم تأكيد أهمية العمل المشترك، على زيادة حجم التبادل التجاري بين البلدين بحيث يتناسب مع الإمكانيات الواعدة لكليهما وكذا مع العلاقات السياسية المتميزة بينهما، بما لها من خصوصية شعبية الأمر الذي يتطلب، تفعيل وتنشيط الآليات الاقتصادية القائمة بين البلدين، لتحقيق الاستفادة القصوى منها وفي مقدمتها؛ اللجنة المشتركة للتعاون الاقتصادي والعلمي والفني، ومنتدى رجال الأعمال.

كما شهدت المباحثات، استعراضًا للجهود التي تبذلها مصر، لتذليل العقبات أمام المستثمرين الأجانب والمشروعات القومية الكبرى، التي شهدتها مصر على امتداد رقعتها، لتحقيق التنمية وللنهوض بالاقتصاد الوطني خاصة المنطقة الاقتصادية لقناة السويس وما توفره من مزايا للمستثمر الأجنبي ونفاذ لمنتجاته، إلى عدد كبير من أسواق الدول المجاورة العربية والإفريقية فضلًا عن إصدار "رخصة الاستثمار الذهبية".

استعرضنا كذلك، الطفرة التي شهدتها مصر، في مجال البنية التحتية والنقل والخبرة التي تتمتع بها الشركات المصرية في هذا القطاع وقدرتها على تنفيذ المشروعات، المطابقة للمعايير العالمية وفي وقت قياسي حيث أعربت لفخامة الرئيس "فاهاجن"، عن استعداد "القاهرة"، لتبادل ما لديها من خبرات مع "يريفان" في هذا القطاع سواء على الصعيد التقني، أو للمشاركة في تنفيذ مشروعات البنية التحتية في أرمينيا .

وتم أيضًا خلال مباحثاتي مع فخامة الرئيس "فاهاجن" التطرق إلى عدد من القضايا الدولية والإقليمية، ذات الاهتمام المشترك سواء في منطقة الشرق الأوسط أو جنوب القوقاز حيث تم تأكيد أهمية الحوار والتفاوض والعمل الدؤوب لتحقيق السلام الدائم والشامل والعادل، ولاستكمال مسار السلام، وتحقيق واقع أفضل وحياة كريمة للشعوب لاسيما في المرحلة الراهنة، التي تتكبد فيها الشعوب معاناة مضاعفة على الصعيد الاقتصادي في ضوء تداعيات أزمة جائحة "كورونا" والأزمة "الروسية الأوكرانية".

مرة أخرى، أتمنى لفخامة الرئيس "فاهاجن" كل التوفيق والسداد، في قيادته لدولة أرمينيا الصديقة، وشعبها القريب لقلوب المصريين وإنني على ثقة في أن هذه الزيارة، ستمثل نقطة انطلاق حقيقية بما نتج عنها من زخم سياسي، وما شهدته من تفاهم على مستوى القمة لتعزيز العلاقات "المصرية – الأرمنية" في مختلف المجالات لاسيما على الصعيد الاقتصادي والاستثماري خاصة في ضوء ما تمتلكه مصر من خبرات في عدد من القطاعات الصناعية، ذات الأولوية للسوق الأرمني. وختامًا، أرجو لدولة أرمينيا وشعبها الصديق، كل التوفيق والتقدم والازدهار. شكرًا لكم.. مع خالص تمنياتي بالنجاح".

فيما أضاف سعادة الرئيس الأرمني إنه بحث مع الرئيس السيسي عدة ملفات ذات طبيعة سياسية وأمنية، من بينها ملف السلام في إقليم ناجورنو كاراباخ، حيث قال الرئيس خاتشاتوريان " لا يخفى على أحد أن مصر قوة عظمى في منطقتها، ولها خبرة كبيرة في التوسط لحل النزاعات الإقليمية والأهم أنها دولة تطبق أيديولوجية السلام وتعيش بسلام مع جيرانها، وبهذا المعنى نحن متشابهون جدًا مع بعضنا البعض، لأن سياسة جمهورية أرمينيا هي تحقيق السلام في المنطقة."

وأضــاف الرئيس الأرمني " نحن نحتاج للخبرة المصـــرية في مجال إرساء السلام والاستقرار في المنطقة، وأنا شخصيًا بحاجة إلى خبرة الرئيس المصــري لأنه واجه تحديات كبيرة في ماضيه السياسـي والعسـكري، وشـهد حروبًا وجعل مصـر دولة مسـتقرة ونامية اقتصـادياً، وقد أشـار خلال مباحثاته معي إلى أن الموقف المصـري في أزمة إقليم ناجورنو كاراباخ هو موقف محايد، ونحن نقبل أي دور مصري لحل هذه الأزمة " .

لذا، فإن الرئيس السيسي خلال زيارته لأذربيجان وضح الموقف المصـري من الأحداث المأسـوية في اقليم ناجورنو كاراباخ ، وأضـــاف فخامته أن القوة ليســت الحل للمشـاكل ولكن تعزيز أُطر السـلام والتعايش السـلمى " وتم أيضاً خلال المباحثات مع فخامة الرئيس إلهام علييف التطرق إلى عدد من القضـــايا الدولية والإقليمية ذات الاهتمام المشـترك، سـواء في منطقة الشـرق الأوسـط أو جنوب القوقاز، حيث تم تأكيد أهمية الحوار والتفاوض وتغليب صـــوت العقل والحكمة، أخذاً في الاعتبار أن القوة العسكرية وحدها لم تكن أبداً كافية لتحقيق السلام الدائم والشـــامل والعادل، وأنه لا بد من التفاوض لاستكمال مسار السلام، وتحقيق واقع أفضل وحياة كريمة للشـــعوب، لاســيما في المرحلة الراهنة التي تتكبد فيها الشعوب معاناة مضاعفة على الصعيد الاقتصادي؛ إذ أنه لم يكد العالم يســتفيق من أزمة جائحة كورونا، حتى خيمت الأزمة الروسـية الأوكرانية، وما تبعها من تداعيات اقتصـــادية، على مختلف القطاعات الحيوية في العالم، ســواء الأمن الغذائي، والطاقة، فضــلاً عن حركة الملاحة البحرية والقطاعات المصرفية، وكذا قطاع السياحة. "

وفيما يتعلق بالجانب السياسـي، قال الرئيس السـيسـي في كلمته إنه تم خلال مباحثاته مع الرئيس الأذربيـــچاني التطرق إلى عدد من القضـــايا الدولية والإقليمية ذات الاهتمام المشـترك، سـواء في منطقة الشـرق الأوسـط أو جنوب القوقاز، حيث تم تأكيد أهمية الحوار والتفاوض وتغليب صـــوت العقل والحكمة، أخذًا في الحســبان أن القوة العسكرية وحدها لم تكن أبدًا كافية لتحقيق السلام الدائم والشـــامل والعادل، وأنه لا بد من التفاوض لاسـتكمال مسـار السـلام، وهنا لابد من التنويه إلى أن الموقف المصري من الأزمة بين أذربيجان وأرمينيا، في إقليم "ناجورنو كاراباخ" كان من أهم أسـباب احتفاظ القاهرة مع كلا البلدين بعلاقات ممتازة، لأنه كان موقفًا نزيهًا بعيدًا عن أي اصـــطفاف، ودافعًا في اتجاه وقف إطلاق النار وإنهاء معاناة سكان هذا الإقليم.

وســتظل مصـــر داعمة لإقرار الســلام العادل في إقليم "ناجورنو كاراباخ" حفاظاً على حياة الشـــعبين الأرمني والأذربيـــچاني. عرضنا في إشارات قصيرة الموقف المصري من القضـــية الأرمنية على مدار تاريخها منذ اندلاعها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مروراً بأم الجرائم ضد الإنسـانية الإبادة الأرمنية — والتي سـوف نتذكر ونطالب ونحن بصـدد الذكرى ١٠٨ لها– وصـولاً للدور المصـري في حـل النـزاع القـائـم في إقـليـم ناجـورنـو كـاراباخ.



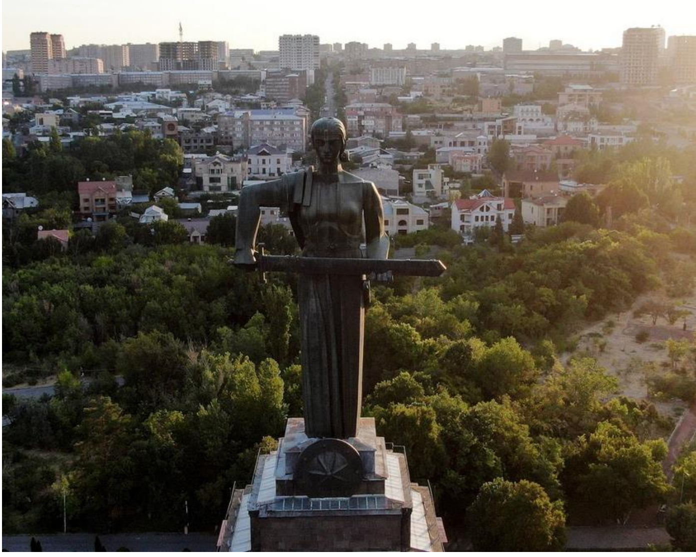


صوصي مايريك وزابيل يسايان
شاهدتان على أوقات أرمينيا العصيبة

بقلم: جاكلين جرجس

ونحن نُحي الذكرى الثامنة بعد المائة للإبادة الجماعية للأرمن على يد الأتراك علينا أن نقدم انحناءة تقدير لكل امرأة أرمنية ونتذكر مدى قوة تحملها وصبرها على ما لاقته من أهوال حين سار الآلاف من الأرمن على أقدامهم في الصحراء تحت ظروف قاسية، دون طعام أو شراب، وتسابق المتوحشون من العصابات التركية إلى بقر بطون الحوامل من النساء والرهان على نوع الأجنة في بطونهم، وقتل من يتوقف منهم عن السير طلباً للراحة. كل ذلك إلى جانب ما تعرضت له المرأة من عذاب وحرق وصلب واغتصاب كما كان يتم اتهام النساء بحيازة الأسلحة. لذلك كنّ يعرّون من ثيابهن كاملة، ويضربن ضرباً مبرحاً بسياط من أغصان الأشجار الخضراء. هذه الممارسات نُفِّذَتْ أيضاً على النساء الحوامل أيضًا هذه الانتهاكات وهذا التفتيش كان يتكرر كثيراً حتى إن البنات والنساء الأرمنيات كنّ يهربن إلى الغابات والتلال ومغاور الجبال، حينما يقترب الأتراك فإن أردنا الحديث عنها لا تسعنا المجلدات تلك المذابح وثقها فايز الغصين المحامي السوري كان في تلك الأثناء منفياً. وفي طريقه للمنفى شاهد بعينيه تلك الفظائع وجمعها في كتابه الموسوم بـ "المذابح في أرمينيا"، صدر عام ١٩١٧ ونشرت مقتطفات منه جريدة "المقطم" الصادرة بمصر آنذاك.

فما مرت به المرأة الأرمنية في مختلف العصور شاهد على تاريخ كامل من العطاء والتضحية والبذل وحبها لوطنها يجرى بجسدها كسريان الدم في العروق،



نصب أرمنيا الأم -ويجسد شخصية الشهيدة الأرمنية "صوصي مايريك"

إذ دائمًا نجدها في الصفوف الأولى المدافعة عنه حيث ساهمت في تنظيم الأعمال البطولية، واعتبرت أن نداء الوطن أهم من الأمومة، فلم تقبل بالتخاذل أو التقاعس، وفي كثير من الحالات تشجع أبناءها للفداء من أجل الارض والشعب. بالإرادة الصلبة، مشددة على حرية التعبير، فتغلغلت في الحقول العلمية واستطاعت أن تحقق أحلامها. إن اتخذنا أدلة الرجوع بالزمن وسيلة لنعرف من هي المرأة الأرمنية نجد أن لها دور بارز في الحياة العامة في فترة الحكم العثماني، و كان هذا الدور جلياً في الحياة الثقافية والاجتماعية، حينما عملت على تثقيف نفسها ودخولها إلى المدارس من أجل تعليمها وكسبت خبرات واسعة، بعد أن كان التعليم حكرا على الرجال فقط واشتهرت الكثير من النساء الأرمنيات في هذا المجال وفي مقدمتهن الأخوات خيزانسي. كما برزت المرأة الأرمنية

في الجانب الاقتصادي، فكان للمرأة الأرمنية دور واضح فيه، إذ عملت بجهد كبير في تحقيق مكاسب مادية من أجل توفير سبل العيش لها وإلى عائلاتها، ومارست أنشطة مختلفة منها الزراعية والعديد من الحرف والمهن اليدوية في مقدمتها الخياطة والتطريز، كان لها مواقفها القوية والواضحة في الجانب السياسي التي ظهر دورها فيه بشكل كبير جدًا وعملت جاهدة من أجل تحقيق أهداف الأرمن ونيل الاستقلال من الدولة العثمانية، إذ شاركت الرجل في نشاطاتها وقادة التظاهرات حتى تحقق لها ما أرادت في عام ١٩٢٣م.

أما في عصر الاستبداد، أصبح دورها مستتراً، في بيئة تقليدية رجعية، لم يُسمح لها بتقرير مصيرها، ولم يترك لها خيار نمط العيش، لا بل سجنت بين جدران أربعة، خاضعة لأحكام أهلها؛ اضطرت أن ترتدي ثياباً صبيانية ويمرغ وجهها بالوحل أو الرماد عند سن البلوغ، كي لا تتعرض للملاحقة والخطف؛ أما في عهد التحرير والابادة، أي بعد معاهدتي "برلين وسان ستيفانو"، دعيت المرأة لسلوك طريق الحرية أو الاستشهاد؛ لذلك نجد المرأة الأرمنية مكرسة بشدة للعائلة.

يقدر الكثيرون التقاليد الشعبية، ويحترمون دائمًا جذور الأسرة. قد تتعلم الفتيات حيل الأنثى في حيازة زوجها وتوجيه أسرتها على الرغم من أن الزوج الأرمني يعتبر رئيسًا تقليديًا يقدم الرجال الأرمن الدعم والحماية للأسرة فيما نجد المرأة الأرمنية هي عشيقة المطبخ ورفيقة مخلصة مدى الحياة، المرأة الأرمينية قادرة على التسامح والمسامحة وعلى الرجال الأرمن القيام بذلك في كثير من الأحيان! وإذا كانت السمة الرئيسية للرجال الأرمن هي قوة الروح والعواطف، فإن المرأة الأرمنية مشهورة بالاقتصاد والنظافة والصبر إنهم لا يعتزون فقط ببيت العائلة، ولكنهم يدعمون أيضًا الحياة الثقافية والروحية للأم، كونها العمود الفقري للأسرة والمجتمع، بالمقابل عظم دور الجدة في هذه المرحلة، استقطبت محور العائلة وباتت كلمتها مسموعة ومطاعة من الجميع وعُهد إليها تربية الأحفاد وتعليمهم وتوجيههم للمحافظة على التقاليد والعادات لم يجرؤ حينها أحد على عصيان أوامرها أو عدم إطاعتها.

وبالرغم من كل ما مرت به أرمينيا والمرأة الأرمنية تحديدًا إلا أن القدر يجعل أرمينيا على موعد دائم مع الحرب والألم ففي العصر الحديث انخرطت أرمينيا وأذربيجان، وكلاهما كانا جزء من الاتحاد السوفيتي السابق، في حرب بعد إعلان استقلالهما في أعقاب زوال الاتحاد السوفيتي. وقد انتصرت أرمينيا وضمت أجزاء كبيرة من أراضي أذرية، بما فيها إقليم ناجورنو –كاراباخ (ذات الأغلبية الأرمنية). وانتهت الحرب بوقف لإطلاق النار بوساطة روسية عام ١٩٩٤ .واتسمت الفترة التالية بمحاولات دبلوماسية فاترة لإيجاد حل، فضلاً على الاشتباكات العسكرية العرضية. وقاد مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا الجهود الرامية لإيجاد حل للصراع بين أذربيجان وأرمينيا، وشُكلت «مجموعة مينسك» عام ١٩٩٢ بواسطة منظمة الأمن والتعاون في أوروبا (التي تشترك في رئاستها الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا) لمعالجة هذه المسألة. ولم تنجح المجموعة بسبب سياسات القوة الدولية، وكذلك عدم رغبة أرمينيا في الانخراط كبلد له اليد العليا في هذا المجال، واعتقاد أذربيجان بأن الرؤساء المشاركين للمجموعة موالون لأرمينيا لم يتغير شيء، حتى حرب الأسابيع الستة عام ٢٠٢٠ (حرب كاراباخ الثانية)، عندما ألحقت أذربيجان هذه المرة هزيمة بالجانب الأرمني.

ومنذ انتهت في خريف ٢٠٢٠ الحرب الثانية بين أرمينيا وأذربيجان حول إقليم ناجورنو كارا باخ المتنازع عليه بينهما، تدور بين البلدين اشتباكات حدودية متكررة، إلى أن تم الانتهاء من وضع مسودة اتفاق سلام مع أذربيجان وإرسالها إلى باكو، وكذلك إلى الدول الأعضاء في مجموعة مينسك التابعة لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا، وإن أرمينيا استكملت العمل على مسودة اتفاق حول السلام والعلاقات مع اذربيجان وتم تسليم مقترحاتها الى الجانب الآذرى، وأعلن رئيس الوزراء الأرمني : "يجب أن تجسد الوثيقة فلسفة معينة، ونظامًا للضوابط والتوازنات، والذي سيمنع أي سيناريو يمكن فيه انتهاك سلام دائم ومستقر".

وتابع: "نأمل أن نتمكن من البناء على التقدم المحرز في الجولات الثلاث من المحادثات، ويجب ألا يتحول توقيع الوثيقة إلى حرب، بل يعني في الحقيقة سلامًا."

وبالعودة إلى فترة المذابح نجد أن الكتابة الأدبية النسوية لتلك الفترة شحيحة تمثلت فى بعض الأعمال القليلة التى قدمتها زابيل يسايان وغيرها وهي كانت روائية مرموقة ومترجمة، وواحدة من أبرز الأدبيات الأرمنيات، وكانت توقع كتاباتها أيضاً بالاسم المستعار "شاهان" كانت يسايان المرأة الوحيدة في قائمة "ترحيل الأرمن المثقفين في ٢٤ أبريل ١٩١٥. استطاعت زابيل تجنّب الاعتقال وهربت إلى بلغاريا ثم إلى القوقاز، حيث عملت مع اللاجئين على توثيق روايات شهود الأعيان عن الأعمال الوحشية التي وقعت خلال مذابح الأرمن.

كانت قد ولدت في ضاحية سكودار في اسطنبول وتعلمت هناك، ثم اجتهدت فيما بعد في تطوير نفسها بالمطالعة حتى التحقت بجامعة السوربون ودرست الأدب الفرنسي والفلسفة. وكانت مدافعة شرسة عن حقوق المرأة وتحررها. لفتت الأنظار بعمق تحليلها النفسي وتصويرها الحياة الواقعية بعفوية صادقة. غادرت في عام ١٩٠٨ إلى قيليقيا لتشارك في تقديم المساعدات لضحايا أضنة، وكتبت كثيراً من المقالات والروايات في ذلك، منها روايات

"بين الدمار" (١٩١١) و"اللعنة" (١٩١١) وقصص قصيرة بعنوان "صفية" عام ١٩١١ و"العروس الجديدة"، كذلك تواجدت زابيل في العام ذاته لتنظيم نقل اللاجئين والأيتام. في هذه الفترة كتبت مجموعات قصصية ثم قررت الاستقرار في الجمهورية الأرمنية مع أولادها، وفى عام ١٩٣٤، شاركت في أول اجتماع لاتحاد الكتّاب السوفيت في موسكو. درّست اللغة الفرنسية والأدب الأرمني في جامعة يريڤان الحكومية وتابعت الكتابة بغزارة، دعت حكومة أرمينيا السوڤيتية يسايان عام ١٩٣٣ لتُدرّس الأدب الأوروبي في جامعة يريڤان الحكومية، فاستقرت في الوطن الأم الذي طالما حلمت به.

ترجمت بعض أعمال موريس مترلنك مثل "الموت" Mahe و"الحكمة والمصير"، عام ١٩١٧. وخلال التطهير الأعظم، اتُهمت بالقومية واعتُقلتها السلطة السوفيتية الستالينية عام ١٩٣٧، وحوكمت بتهمة ملفقة. توفيت في ظروف غامضة، لكن ثمة تكهّنات بأنها ماتت غرقاً في المنفى، ربما في سيبيريا في وقت ما عام ١٩٤٣ثم ثبتت براءتها وأعيد لها اعتبارها، وكُرِّمت بعد وفاتها .

نجد أن لمدّة عقود بعد الإبادة الجماعية وقبل أن تصوت النسويات الأرمنيات (داخل أرمينيا وخارجها) أصبحت المرأة أكثر وضوحًا وأعلى صوتًا، كان الإقليم الجماعي والهوية، والاستنساخ الثقافي للمجتمع مرتبطين في الغالب بالنساء — النساء اللّواتي وصلن إلى الدول الأجنبية مع أطفال وفتيان وفتيات في سن المراهقة، ومع كبار السنّ. وكان معظم الرجال إما مسجونين، مقتولين، أو مجبورين على الانضمام إلى الجيش العثماني، وعندما وصل هؤلاء النساء والأطفال إلى المخيمات، نادرًا ما نجد ذكرًا لكيفية نجاتهم، ازدهارهم، وإعادة بنائهم. يقع تهميشهنّ أو تحديد انتصاراتهنّ بتمرير التعليم وثقافتهنّ وتاريخهنّ للأجيال الشابة. نادرًا ما تعتبر أعمالهنّ اليدوية ذات قيمة خارج الحرفية اليدويّة أو الوكالة الاقتصادية. فمن النادر أن نتحدث عن هذه الأمور إلا في بعض الكتب أو الروايات التاريخية التي خلدت ذكرى المذابح، ناهيك عن النساء اللواتي أعدن بناء المجتمعات أو التجارب التي أثّرت على حياتهنّ وكذلك على أطفالهنّ في حين أن النساء والفتيات لم تكن تتعرضن إلى الاغتصاب فحسب، ولكن أيضا إلى الزواج القسري، والتعذيب، والعمل الجنسيّ القسري، الذّي عرّضهنّ للبيع إلى العبوديّة، فضلا عن تشويه أعضائهنّ الجنسية. كما تقول سناساريان: " رغم ثروة الأدبيّات عن الإبادة الجماعية للأرمن، تناول القليل من الأبحاث موضوع النساء اللّواتي شكّلن كتلة المبعدين. لم يتمّ تصوّر أهمية الجندر في عملية الإبادة الجماعية تجريبيًا ولا تحليله منهجيًا." حتى بضعة عقود مضت، لم يقم الكثير من العلماء والكتّاب والباحثين بدراسة ضحايا الإبادة الجماعية من منظور جندريّ. بدلاً عن ذلك، فإنهم قد تحدثوا عن ضحايا الإبادة الجماعية ككيان واحد ومتقاطع تعبيرًا عنه باختصار في كلمة "ضحايا".

وتقول سينثيا إنلو أن " الوطنيّة انتشرت غالبًا من ذاكرة مذكّرة وإذلال مذكّر، وأمل مذكّر"، في هذه الذاكرة "الجماعية"، ليس هناك مجال للنساء أو لعارهنّ. كانت النساء المعفنات يُعتبرن نجسات، مشوبات، ومحتقرات، على الرغم من أنهنّ قد عانين أكثر من غيرهنّ. لكن الشّعوب، والحدود، والانتصارات تزايد على نزاهة الأجساد.

ففي النّهاية، في الحرب، نزاهة الأجساد هي أول شيء يتوقّع وضـعـه على الخطّ. في الإبادة الجماعية يقوم الرجال بالاغتصاب الجماعي لأنهم يؤمرون بذلك، لأنّه يتمّ تسليع الاغتصاب، أو لأنّ السماح المنهجي خوّل لهم القيام بذلك. لقد ضمّنت الممارسة في التسلسل الهرمي. الرجال يغتصبون لا كرجال فرادى، إنّما كأعضاء من عرقهم أو إثنيتهم أو دينهم، أو جنسيّتهم. عندما يتم اغتصاب امرأة والاعتداء عليها، وأخذها ضد إرادتها، فهي لا تعود تنتمي إلى نفسها أو ثقافتها. بل تعتبر كأنّها وضعت أرضا أو دعست. فهي تصبح ملك مغتصبها حتى بعد فترة طويلة من خروجه عن الصورة. كما لو أنه قد ترك بصماته عليها أو أنّها وصمت مثل الماشية. وهي تصبح أيضا سلعة ذلك الشّعب الأمّة، وسلعة هيكله العسكري. تصبح سرديّتها واحدة سرديّات العدد الكبير من النساء الأخريات. وتؤرّخ الصدمة كفعل عنيف ضد الشّعب الأمة وسلفه وليس على شخصها. تصبح الوشوم على وجهها ويديها برموز العدو أو بمرتبتها الجديدة داخل ''العرق'' الجديد دلالة على امتلاكها، يجعلها حملها القسري شريان عار، وخلقها لأطفال ملوّثين، ممرّرا الانتهاك والتشويه الذّي قام به العدوّ ودولته.

ولأجل كل تلك الاسباب مجتمعة كان على الحفيدات فى العصر الحديث إقرار إعمال المؤتمر الأول للمرأة الأرمنية في المجلس الاجتماعي الأرمني، الذي انعقد بمدينة الحسكة، تحت شعار "اتحاد المرأة الأرمنية بعد إبادة ١٠٧ أعوام تنظم ذاتها في ثورة روج آفا وحماية أرض روج آفا" وخرج بالإعلان عن تأسيس اتحاد المرأة الأرمنية وانتخاب رئيسة لها" لتشكيل اتحاد نسائي أرمني متين". المقاتلة هلا حميد الحسين، من مدينة الحسكة، تحدثت عن انعقاد مؤتمر المرأة الأرمنية قائلةً: "نعقد مؤتمرنا هذا للم شمل كافة النساء الأرمنيات، ولتشكيل اتحاد قوي متين من أجل الوقوف ضد كافة التهديدات والإبادات التي تتعرض لها المرأة الأرمنية"، مشيرة إلى أن العدو التركي عدو تاريخي للشعب الأرمني " فقبل ١٠٧عام، ارتكب إبادات جماعية بحقنا ولا زال يرتكب الابادات والمجازر المفجعة، فنحن اليوم مجتمعات هنا لنؤكد للعالم أجمع بأننا باقون وسنواصل نضالنا" وأكدت إصرار النساء الأرمنيات على المقاومة والنضال في وجه الفاشية، قائلة: "سنقضي على الفاشية بسواعدنا وإصرارنا، فنحن اليوم النساء الأرمنيات كتفاً بكتف ويداً بيد سنحمي من تبقى منا، ولن نسمح بأن يتم تكرار المجازر التي ارتكبت بحقنا وحق شعبنا، وسنقضي على العدو التركي وكل من يشن حرباً علينا " ووجهت رسالة إلى المحتل التركي، قالت فيها: "نقول ونكرر بأنك لن تهزمنا ولن تستطيع أن تنال من عزيمتنا وإصرارنا على النضال والمقاومة، وسنرفع من صوت المرأة الأرمنية من اليوم فصاعداً، فالمرأة الأرمنية هي نتيجة وجود ومكافحة " وأضافت: "إننا شعب شمال وشرق سوريا بمختلف دياناتنا ومذاهبنا موجودين على أرض أجدادنا لهزيمة العدو التركي الفاشي، ولرفع العلم الأرمني وصوت المرأة الارمنية عالياً، ولنعيد ونكرر للمحتل التركي بأننا سنهزمه ولن ننهزم" وحول أهمية عقد مؤتمر للمرأة الأرمنية، علقت المقاتلة هلا حميد الحسين، على ذلك بالقول "كان هناك حاجة لعقد هذا المؤتمر، لتشكيل اتحاد نسائي أرمني متين، ولنؤكد للعالم بأننا شعب مقاوم ولن يستطيع أحد إبادتنا.

وتخليدا لدور المرأة الأرمنية العظيم يقف شامخًا فى قلب العاصمة الأرمينية يريفان تمثال شاهق هو تمثال " أرمينيا الأم " الذي يبلغ طوله ٣٦ متراً، ويجسد شخصية الشهيدة الأرمنية "صوصى مايريك" وهي تحمل سيفاً وكأنها تقف حارساً لحماية البلاد.

يرمز نصب أرمينيا الأم إلى السلام النابع من القوة وهو يمثل عدد من الشخصيات النسائية في التاريخ الأرمني أمثال الأم (صوصي مايريك) وآخرون ممن حملوا السلاح لمساعدة أزواجهن في الإشتباكات التي وقعت مع القوات التركية والجماعات الكردية الغير نظامية. كما يرمز النصب إلى الأهمية التي توليها العائلة الأرمنية إلى الأم أو الجدة الأكبر سنًا في العائلة.و يقع فى حديقة النصر ويضم أسفله متحفاً عسكرياً من ٥ أدوار وقبراً للجندى المجهول تخليداً لذكرى الجنود الذين فقدوا حياتهم فى الحرب العالمية الثانية، وكذلك فى حرب ناجورنو كاراباخ ومن بينهم عدد من النساء، يظهر من جميع المواقع فى يريفان، للخصوبة والنماء ويؤكد على الأهمية التى توليها أرمينيا لدور المرأة فى كافة مجالات الحياة ويقف هذا التمثال، الذى تم تصميمه فى عهد الزعيم ستالين، فى قلب العاصمة شاهداً على أهمية دور المرأة، سواء فى فترات الحرب و السلام.ويجسد اعتراف أرمينيا بدور المرأة فى المجتمع فى جميع الأوقات، وخاصة خلال الحروب والأوقات العصيبة التى شهدتها أرمينيا على مدار التاريخ.

الكوارث وبوريس الإنسان



بقلم: كيفورك خاتون وانيس
كاتب ومترجم

مهما تعارضت آراء الآخرين مع معتقدات شخص أو تعاكست مع أفكاره فإن سلوكه العملي هو الأساس الصحيح الذي يجب اتباعه في تقييمنا له.

يتمثل ذلك السلوك العملي الذي يفرض احترام صاحبه في حالتين: الأولى هي التزام هذا الشخص بمبادئه قولاً وتطبيقاً (طبعاً باستثناء الداعية للعنف أو المبررة له)، بعبارة أخرى، عدم المتاجرة أو خداع الناس بها، والثانية هي تغليبه الموقف الإنساني على العقائدي؛ إذ أن الإنسانية والعقائدية نادرًا ما يتناغمان معا، فالأولى حرة مجالها رحب عابرة للمعتقدات وكل الاختلافات، والثانية مقيدة ونطاقها ضيق تقف إلى جانب المنتمين لذات العقيدة حتى وإن كان الآخرون على حق!

بوريس شربينا (١٩١٩ – ١٩٩٠) هو من القلائل الذين ساروا على هذا النهج؛ حيث جسّد بأعماله الحالتين معًا فكان مثالاً للبطولة والغيرية بصورها الحقيقية البسيطة.

كلما حدثت كارثة طبيعية كبيرة كالزلازل الأخير وما شابه في أي بقعة من العالم، لا بد أن يقفز اسم بوريس شربينا من الذاكرة إلى الواجهة كحالة فريدة نادرة التكرار.



السيد بوريس شربينا (١٩١٩ - ١٩٩٠)

قليلة هي الكتابات التي أعطت بوريس المكانة التي يستحقها أو قدمته كنموذج لشخص سخّر مبادئه من أجل الإنسان وليس العكس. ثمة كارثتان إنسانيتان حلتا بالاتحاد السوفيتي في السنوات الخمس الأخيرة من عمره، الأولى هي كارثة انفجار المفاعل النووي تشرنوبل عام ١٩٨٦م، حيث تعرّض ما يقرب من ٨ مليون شخص من سكان روسيا وروسيا البيضاء وأوكرانيا للإشعاع، وحوالي ١٥٠ ألف كيلومتر مربع من الأراضي للتلوث،

والثانية هي زلزال أرمينيا عام ١٩٨٨ م الذي محى مدينة سـبيتاك من الخريطة وابتلع حياة أكثر من ٣٠ ألف شخص.

كان بوريس في زمن وقوع هاتين الكارثتين (١٩٨٤ - ١٩٨٩) نائباً لرئيس مجلس الوزراء الاتحاد السوفيتي، وفي ذات الوقت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، وهما كما يعلم الجميع منصبان مهمان ليس على الصعيد الداخلي فقط، بل والدولي أيضاً، كما كان قد شغل قبل ذلك منصب وزير النفط والغاز لعدة سنوات.

لم يكن ما قام به بوريس من إشراف ميداني على عمليات الإنقاذ خلال زلزال أرمينيا بالعمل العادي الذي يمكن أن يُنسى، إلا أن إصراره على التواجد في تشرنوبل باستمرار للتأكد بنفسه من إتمام عملية اخماد المفاعل، والأهم من ذلك تأمين إجلاء سكان مدينة برابيت العمالية التي كان يسكنها عشرات الآلاف، رغم تحذير الكثير من الخبراء (منهم العالم النووي الروسي فاليري ليجاسوف" ١٩٣٦- ١٩٨٨" الذي شاركه الإشراف الميداني العلمي في السيطرة على الكارثة وإنقاذ حياة مئات الألاف. للأسف لا يتسع المجال هنا للحديث عن بطولة فاليري ونهايته المأسوية بعمر ٥٢ عاماً على يد الـ كي جي بي!) من خطر الاشعاع وأثاره على صحته في المستقبل القريب (والتي بالفعل أودت بحياته بعد أقل من أربع سنوات من الكارثة)، هو عمل إنساني من طراز مميز يستحق عليه وساماً لا يشبه كل الأوسمة! هناك الكثير مما يمكن استنباطه من سلوك بوريس، سواء من قبل رفاق عقيدته أو من قبل المختلفين معها، لكن ثمة درسان بسيطان وعميقان في الآن ذاته يصلحان في كل زمان ومكان!

أولهما يتعلق بالإيمان العقائدي، وهو أن المبادئ ليست أكثر من مجرد شعارات جوفاء وانتفاخ ثقافي وخداع للذات قبل الآخرين، إن لم تتجسد في أفعال ميدانية وخاصة عند تعرض من يدعي التكلم باسمهم إلى خطر حقيقي!



العالم النووي السوفيتي فاليري ليجاسوف

وثانيهما يتعلق بواجب المسؤول تجاه الناس الذين يتكلم باسمهم، وهو أن المنصب ليس امتيازاً بقدر ما هو مسؤولية، وأن العمل الميداني، خاصة في زمن الكوارث، هو التمثيل الحقيقي لهذه المسؤولية!

تبقى ثمة مفارقة مؤلمة، (ربما من حسن حظ بوريس لم يعش طويلاً كي يراها)، وهي تحول المدينة التي أنجبت بوريس (دبالستيف، إقليم دونتيسك، شرق أوكرانيا) إلى منطقة توتر مستمرة، بعد فترة وجيزة من انهيار الاتحاد السوفيتي، مروراً بحرب ٢٠١٥م المعروفة باسم معركة المدينة، وصولاً إلى الغزو الأخير الذي تحول إلى حرب تدور رحاها بين الأخوة الأعداء! أخيراً وليس أخراً، تحية شكر وتقدير كبيرين لكل الجنود المجهولين والمعروفين الذين فعلوا ولازالوا يفعلون المستحيل لإنقاذ ما يمكن من الأرواح، والتخفيف من آلام الناس الذين أصابتهم هذه الكارثة.



هنري ترويا عميد كُتَّاب السيرة الذاتية

بقلم: عطا درغام

ولد هنري ترويا، في الأول من نوفمبر عام ١٩١١، واسمه الروسي" ليف تاراسوف "، أطلق عليه أبواه اسمًا أرمنيًا هو "ليڤون أصلان طوروسيان"وتنتسب عائلته " تاراسوف " إلي الأرمن الذين عاشوا في جبال القوقاز الذين كانوا في صداقة وثيقة مع القبائل الشركسية، و استقر أحد أسلافه المسمى "طوروسيان"، الذي جاء من قرية "تسخنا " التي لا تبعد كثيرًا عن مدينة (ناخيتشيڤان) ، مع عائلته في (أرماڤير). ووفقًا لترويا، فإن المسؤولين القيصريين، بعد أن جعلوا اسم "طوروس" روسيا، حوَّلوه إلى " تاراسوف."

اشتهرت سلالة "تاراسوف" في (أرماڤير)، وفي جميع أنحاء شمال القوقاز، حيث حقق الجد الأكبر ترويا ثروة طائلة من تجارته الواسعة في القماش في (أرماڤير).

عن عائلة والدته، "ليديا ڤاسيليڤنا أبيسالوموڤا"، كتب عن نفسه: "نشأت جدتي لأمي، من أصل ألماني، في معهد سمولني وبعد الزواج كرَّست نفسها بالكامل لزوجها وأطفالها، وجدي لأمي من أصل أرمني چورچي."

ولكن يبدو أن اللعنة كانت تقف لهم بالمرصاد؛ إذ سرعان ما اندلعت الثورة البلشفية، ولم يجد الجميع بدًا من الفرار تاركين وراءهم كل شيء، خاصة عندما هوت هراوات القيصر علي الانتفاضة الثورية مبعثرة إياها ما بين أعمدة المشانق أو منافي سيبيريا دون أن تُدرك أنها حطَّمت الحلم إلى شظايا صغيرة، كل شظية تحولت إلى نبتة ترعرعت في مكانها الجديد لتبني صروحًا شامخة تنبض بالحياة.



ولم يكن عام ١٩١٧ عامًا عاديًا بالنسبة لهنري ترويا؛ ففي هذا العام فر مع والديه من روسيا، ولعل كلمة الفرار هنا ملخص كل ما يمكن أن يختلج في نفسية طفل صغير شاهد بعينيه ليس فقط انهيار كل شيء حوله، ولكن يكفيه رؤية انهيار مثله الأعلي، وهو والده وفراره خشية البطش، هذا المثل الأعلي الذي كان يومًا ما يرهبه الجميع.

حفر هذا المشهد في مُخيِّلة ترويا لدرجة جعلته يتعامل مع حكايات والده قبل النوم على أنها كلها خرافات، مع أن الواقع يؤكد أنها مغرقة في الحقيقة المرة، وسرعان ما مل الصبي ذو العشر سنوات هذه الحواديت، وقرر أن يُلقي بنفسه في أحضان القراءة.

انتقلت عائلة "تاراسوف" من (أرماڤير) إلى (موسكو)، حيث قاموا ببناء عقار في المدينة لأنفسهم، وبعد الثورة البلشفية فرت عائلة "تاراسوف" إلى (كيسلوڤودسك)، إلى ملكية عائلة كارس، ثم من (ڤوروسيسك) إلى (إسطنبول) ومع ذلك، تم السماح للاجئين الأرمن فقط بالهبوط في ميناء المدينة، وكان لديهم جوازات سفر روسية.

التحق، وهو في الثامنة من عمره، بمدرسة "لويس باستير" الثانوية، وتخرج منها ودرس الحقوق.

بعد عودته من الجيش في عام ١٩٣٥، ذهب للعمل في قسم الميزانية في مديرية الشرطة في مقاطعة (السين)، لهذا كان على تروي الحصول على الجنسية الفرنسية لكسب رزقه، وفي نفس الوقت نُشرت الرواية الأولى "الضوء الخادع"، وفي العام نفسه ١٩٣٥، اضُطر إلي تغيير اسمه الروسي بعد أن نصحه ناشر الرواية " أنه ليس من مصلحته نشر كتاب باسم أجنبي ، بعد قراءة " ليف تاراسوف "على الغلاف ، سيأخذه القارئ للترجمة " ، وأوصى بشدة أن يأتي مع اسم مستعار؛ فكتب "ترويا".

في عام ١٩٣٨، حصل هنري ترويا على جائزة "چونكور"عن روايته" العنكبوت"، وفي عام ١٩٤٥، بعد أن تلقى من حفيد البارون "چيكرن دانت" نسخًا من رسالتين من بداية عام ١٨٣٦ إلى "لويس چيكيرن"، استخدمها عند كتابة كتاب عن بوشكين.

وخلال السنوات التالية حصل على مختلف الجوائز الأدبية، ومن أهمها الجائزة الكبرى لأمير موناكو على مجمل أعماله، ووصل إلى قمة الهرم باختياره عضواً في الأكاديمية الفرنسية في مايو١٩٥٩، واستمرت عضويته فيها لأربعين عامًا، وهي أطول فترة يقضيها عضو في الأكاديمية، وكانت هي التي نعته لدى وفاته. وقد قال زميله فيها "موريس دورون ‘‘: " لقد كتب بلغة بسيطة واضحة، فرنسية باقية، فرنسية خالدة "، كما حصل على وسام جوقة الشرف، ووسام الفنون والآداب من رتبة قائد، ووسام الصليب الأكبر لجوقة الشرف .

وفي الخامس من مارس عام ٢٠٠٧، تتلقي الأوساط الأدبية خبر وفاة هنري ترويا، بعد ستة وتسعين عاما ترك لنا فيها إرثًا أدبيًا تنوع بين الرواية والمسرحية والسيرة الذاتية.

النشاط الإبداعي

خلال حياته البالغة ستة وتسعين عامًا، كتب هنري ترويا العديد من الأعمال، نصفها تقريبًا مُخصص لروسيا وشخصياتها البارزة، وكتب عددًا من السير الذاتية لشخصيات روسية وفرنسية شهيرة، وظهر لديه شغف القراءة والكتابة في مرحلة مبكرة، حيث داعبت خياله في طفولته القصص الخرافية الروسية.

أصدر هنري ترويا أكثر من مئة كتاب بالفرنسية بين روايات وقصص ودراسات لشخصيات تاريخية وأدبية فرنسية وروسية، تتناول سيرتهم الذاتية والغور في أعماق أفكارهم وتحليل أعمالهم وتسجيل مآثرهم ...إلخ، وكانت الموضوعات الروسية من التاريخ والأدب الروسي في مقدمة تلك الكتب وفتحت رائعة تولستوي "الحرب والسلام" الباب أمامه لينهل من (الأدب الروسي)؛ لذا قرر أن يفتحه وينهل منه بكل طاقاته، وتوالت الروايات وتعددت أسماء الأدباء. بدأت الحياة الإبداعية للكاتب في ثلاثينيات القرن الماضي، عندما نُشرت روايته الأولى " الضوء الخادع ‘‘، وبعد ثلاث سنوات في عام ١٩٣٨، حصل على جائزة "چونكور" عن روايته " العنكبوت."

ومن أعماله الأدبية "ما بقيت الأرض" عام ١٩٤٧م (نوع من المسرحية الهزلية الموسكوبية تدور في فجر الاضطرابات التي شهدتها الضواحي البلطيقية)، و"موسم الزرع والحصاد" عام ١٩٥٣م، و"حداد الثلج" عام ١٩٥٢م الذي اقتبس سينمائياً، و" نور العادلات" ١٩٥٨ (ترصد إرهاصات الثورة الروسية في العام ١٩١٧، من خلال حياة رجل وزوجته)، وعلى امتداد رواياته المتعددة : " ڤيو" (حكاية طفلة فرنسية صغيرة، تبلغ الثامنة من عمرها، تفقد والدها في الحرب ولا تعرف كيف تعبّر لوالدتها عن ألم الابتعاد عنها)، وروايات كثيرة أخرى عرفت نجاحاً باهراً مثل: " البَذر والحصاد" عام ١٩٥٣

(حكاية امرأتين: أم وابنتها. نقلها كريستيان فرنسوا إلى الشاشة).

وقد نشر مذكراته بعنوان "درب طويل" عام ١٩٧٦م، وتأتي آخر رواياته " المطاردة " في فبراير ٢٠٠٦؛ ليختم بها حياة حافلة بالأعمال الأدبية التي تعدت مائة عمل، وجعلته أقدم أعضاء الأكاديمية الفرنسية منذ ١٩٥٩ وحتى وفاته. وقد صُنّف ترويا الكاتب المفضل لدى الفرنسيين، بحسب استطلاع للرأي أجراه معهد "سوفريس" عام ١٩٩٤م.

بالطبع لم تخل نفسية ترويا مما حدث له من فرار أسرته إبان طفولته؛ فجاءت روايته "مجد المهزومين" تعبيرًا عما حدث مؤكدًا علي أن التحدي لا يعرف الانكسار، وعكست مناخ الديكتاتورية في العهد الإمبراطوري لروسيا لا سيما حين تولى "نيقولا الأول" العرش، وما حدث من ثورة النبلاء الليبراليين وبالتضامن مع بعض قواد الجيش، بطل الرواية يحمل اسم "نيقولا" - اسم يُماثل اسم الإمبراطور- وهو مناضل ضد حكم "الإمبراطور نيقولا "، وأثر الهزيمة الساحقة التي لحقت بثورة الديسمبريين كانت شديدة على هذا المناضل وزوجته " صوفيا "الفرنسية الجنسية والتي فضّلت الارتحال إلى صحراء سيبيريا الثلجية لتكون قرب زوجها السجين.

نقلنا هنري ترويا بقلمه المبدع إلى عالم الإمبراطورية الروسية في عام ١٨٢٥، بمدنها وقراها وأسيادها وعبيدها وأحوال المجتمع.. وبؤس الفلاحين والعبيد والقيود الصارمة على الإنسان الروسي؛ فروايته تصلح لأن تكون مرآة لكل الأنظمة الاستبدادية وأن يكون الإمبراطور "نيقولا الأول" هو كل رئيس دولة دكتاتورية.

أما روايته " شقائق النعمان" فهو عمل يرتقي إلي مصاف روائع الأدب العالمي؛ لأنها تتناول إحدي المراحل المعقدة في تاريخ أوروبا عندما اندلع الصراع الدموي بين الملكية والجمهورية، كما تناول شعارات الثورة الفرنسية من حرية وعدل وديمقراطية، وذلك من خلال قصة حب تكسر كل الحواجز أمامها لتصل إلى السمو والتوحد.

وتشكّل " أليوشا " روايته الأكثر شهرة المفتاح للولوج إلى العالم الروائي والواقعي لهنري ترويا، عالمٌ يلتحم فيه التمزّق بالبحث الدائم عن فرنسا وروسيا اللتين لا يكلّ عن التفتيش عنهما، وروسيا هذه الجزء الطفولي الذي يشكّل الكائن، هي التي سعى الكاتب إلى إيجادها وترميمها وإعادة إنتاجها طوال حياته.

انغمس ترويا في عالم الكتب وفي حياة الأدباء والفنانين والصراعات الخفية والمعلنة التي تحدث بينهم، كما هو الحال في أعماله " الميت الحي وأليوشا " وأيضاً رواية " ابنة الكاتب" التي ربما كان بطلها هنري ترويا نفسه، فبطل الرواية "إرمان بوازييه" عمره ٨٥ عاماً، وهو نفسه العمر الذي كتب فيه هنري ترويا هذه الرواية، كما أن البطل حائز على عضوية المجمع العلمي الفرنسي، وكاتبنا عضو في الأكاديمية الفرنسية، وهناك الكثير في سياق الرواية يشير الى آراء وأفكار وفلسفة هنري ترويا في الأدب والحياة.

وتروي رواياته حكايات متشابكة ذات طابع ملحمي، وتُعدّ من نمط الرواية النهر (وهو نمط من الرواية يتناول حياة عائلة بأجيالها أو طائفة أو مجموعة بشرية). ويمكن مقارنة رواياته بالروايات التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، فقد تجنب تروى االأساليب التجريدية لحركة الرواية الحديثة التي سادت في القرن الماضي؛ لذا لم يحظ قط بمحبة المثقفين الفرنسيين.

يري أن الكتابة هي روحه التي لو فارقها لمات؛ لذا ظل يكتب حتى آخر سنة في عمره، ولعل ذلك قد أثار الكثير من الجدل خاصة بعد نشر روايته "مريانا متمردة " والتي تحكي قصة الشاعرة الروسية (مريانا تستقتاقا التي كانت

من أشهر شعراء روسيا البيضاء إبان الصراع الذي دار هناك القرن الماضـــي)، حيث مزج ترويا بين حياتها وبين قصة الثورة الروسية.

تعددت أعمال ترويا الأدبية ما بين ســـير ذاتية وروايات أدبية مثل: "ســيدات ســيبيريا" التي تكشــف عن تلك العلاقة الوجدانية القابعة وراء علاقة الحب والوفاء الزوجي ورواية "صـوفيا أو نهاية المعارك" التي يصــل فيها ترويا إلى نهاية نصــف قرن من الأحداث التي امتزج فيها التاريخ بالأدب والأحلام بالواقع؛ ليؤكد أن الملوك ليســوا هم أهم من في التاريخ، بل إن هناك بعض الأفراد الذين يمكن أن يؤثروا في التاريخ رغم بساطتهم.

عميد السير الذاتية

يُعـد ترويا من الأدباء القلائـل الـذين توغلوا في ترجمـة الشخصيات وكتابة السير الذاتية ، فكانت روسيا مصدرًا غنيًا لكتابة الســيرة التي كان يُشــتهر بها ، فكتب ســيرة القياصـــرة (كاترين الكبرى) عام ١٩٧٧ و (نيكولاي الأول) ، وســيرة الكتّاب الكلاســيكيين الكبار الروس ومنهم (ألكســـندر بوشــكين) عام ١٩٤٦و(ڤيودور دوســـتويڤكي) عــام ١٩٤٠، و (ليرمنتوف)عــام ١٩٥٢،(وليو تولســـتوي) عام ١٩٦٥ ، و(چوچول) عــام ١٩٧١، و(أنطون تشــيكوف) عــام ١٩٨٤، و(تورجينيڤ) عام ١٩٨٥ ، و(ماكسـيم چوركي) عام ١٩٨٦ ، و(تســـڤيـتـايـڤـا) عــام ٢٠٠١ ، و(بوريس باسترناك) عام ٢٠٠٦.

كما كتب ســيرة بعض كبار كُتّاب القرن التاســع عشــر الفرنســيين أمثال كما كتب أيضًــا الســير الذاتية لكتاب فرنســـا مثل: (بلزاك) و(بولير) و(فلوبير) عــام ١٩٨٨، و(چي دي موپاســـان) عام ١٩٨٩، كما كتب رواية تاريخية مكونة من خمسة أجزاء تحكي الصراع الدموي بين الحركات الثورية والصراع بين الجمهورية والملكية.

ومن آخر الســير التي كتبها ســيرة تتناول الموســيقار الروســي الشهير (تشايكوڤسكي).

هذه الســيرة تحمل عنوان " البارونة والموســيقار "، وهي في الحقيقة ســيرة البارونة (ڤون ميك)، ولكنها تســتعرض بدقة شخصية (تشايكوڤسكي) الذي كانت هذه البارونة تحبّه عن بعد من دون أن تقابله وترعاه مادياً بكل كرم، وكانا يتبادلان الرسائل بغزارة؛ حيث يشرح الموسيقار في رسائله وجهات نظره في مضـــمار الموســـيقى والأدب والدين والتاريخ والسياسة. كتب هذه السير بأسلوب يتسم بكل الطلاوة والانســـياب؛ بحيث تتدفق وكأنها الرواية بلغة فرنسـية غاية في الإتقان والدقة وبأسـلوب هو الأسـلوب السهل الممتنع.

وهو يعتمد في مصادره بشكل أساسي على الرسائل التي تبادلها هؤلاء العمالقة مع أصــــدقائهم وأفراد عائلاتهم وناشري أعمالهم والشخصيات الأدبية الأخرى، التي كانوا على علاقة بها، وهم يعبّرون في هذه الرســـائل، كما هو متوقع عن مكنونات صدورهم بكل صراحة وعن دوافعهم للكتابة ووجهات نظرهم في الحياة السياسية والاجتماعية، كما قد لا يتسنى لهم في كتاباتهم نفسها.

كتب ترويا كل هذه الكتب في فرنســـا، وهذا يعني طبعا أنه كانت لديه إمكانية الاطلاع بســـهولة على الوثائق اللازمة والضـــرورية وباللغات الروســـية والفرنســـية وبقية اللغات الأجنبية عن حياة وإبداع هؤلاء الأدباء دون أي (تحفّظ) أيديولوچي ، ودون (إطارات) سـياسية محددة ؛ أي أنه كان يمتلك حرية التصــرف والاختيار والكتابة كمــا يشــــاء، بغض النظر عن التحـديـدات الرسميـة والأيديولوچية التي كانت ســائدة في تلك الفترة بروســـيا أمـام باحثيهـا وناقـديهـا، وهـذا هو الاختلاف والتبـاين الحقيقي والأســـاســـي والجوهري والمهم جدا بينه وبينهم، والذي جعل تلك الكتب متميزة نوعيًا عن كل الدراسات النقـدية والتحليلية التي صـــدرت عن هؤلاء الأدباء في روسيا السوڤيتية آنذاك .

غير أن كتاباته لم تقتصــر على الســير؛ بل كتب كذلك الرواية والقصـــة القصـــيرة والمقالات، كما كتب في أدب الأسـفار والدراسـات التاريخية، إضافة إلى مسرحية واحدة تحمل عنوان " سباستيان " مُثِّلَت على خشبة المسرح في باريس عــام ١٩٤٦ كمـا حُوِّلَ الكثير من هـذه الروايات إلى أفلام سينمائية.



بقلم: شيماء الشواربى

الأرمن بين الماضي والحاضر

(متابعة لندوة مركز الدراسات الأرمنية بجامعة القاهرة مارس ٢٠٢٣)

إحياء للذكرى الــ (١٢٥) لميلاد الشاعر الأرمني (يغيشي تشارينس)، نظم مركز الدراسات الأرمنية بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة ندوة علمية بعنوان (الأرمن بين الماضي والحاضر)؛ وقد أقيمت الندوة تحت رعاية كل من أ.د. محمد عثمان الخشت – رئيس جامعة القاهرة، أ.د. محمد سامى – نائب رئيس الجامعة لشئون المجتمع وتنمية البيئة، أ.د. عبير عبد السلام – عميد كلية الآداب، بالتعاون مع سفارة أرمينيا بالقاهرة، وذلك بالمبنى الرئيسي بكلية الآداب بالجامعة.

افتتحت الندوة بكلمة ألقتها أ.د. دينا أبو الفتوح – وكيل كلية الآداب لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة – كلمة رحبت بها بالحضور وأشادت بأهمية مركز الدراسات الأرمنية ونشاطه.

ثم ألقى سفير أرمينيا بالقاهرة– هراتشيا بولاديان– كلمة أشاد فيها بالعلاقات المصرية – الأرمنية وزيارة الرئيس المصرى لأرمينيا التى أجراها مؤخرًا.

وأخيرًا ألقت أ.د. سهير الدوينى – مدير مركز الدراسات الأرمنية – كلمة شكرت فيها السادة الحضور وخاصة من الجانب الأرمنى، كما شكرت الأستاذة ليليا هاروتونيان على مجهودها مع الطلاب فى تعلم اللغة الأرمنية وتدريسها فى المركز، وعرضت أبرز أنشطة المركز من كورسات



للتدريس وإصدار مجلة پاروس لنشر الأبحاث العلمية ومساعي المركز لتجديد اتفاقية التعاون الأكاديمى بين جامعة القاهرة وجامعة يريفان

وقد بدأ الجزء الأول من الندوة تحت عنوان " تشارينس ١٢٥ وأرمينيا بفيديو لرقصة خاتشكار الأرمنية "؛ ثم استمع الحضور الى كلمة ألقتها خلود يعقوب الطالبة فى مركز الدراسات الأرمنية أعقبها حوار باللغة الأرمنية لطالبات وطلاب مركز الدراسات الأرمنية: وردة أحمد وهايا هشام ومحمد إبراهيم ويحي لبيب.

بعد ذلك تم عرض فيلم قصير عن المعالم السياحية فى أرمينيا؛ ثم قصيدة "جميلتي أرمينيا" للشاعر "يغيشى تشارينس" والتي ألقاها طلاب مركز الدراسات الأرمنية وقد أعقب ذلك فيديو لرقصة "هايكازون" الأرمنية



واختتم الجزء الأول من الندوة، بكلمة للسيدة زارا بالايان – حرم سفير أرمينيا في مصر-.

أما الجزء الثاني من الندوة؛ والذي زادنا ثراء فيما نعرفه عن الأرمن فقد بدأ بكلمة د. انجى حسن – الباحثة في مجال تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية والمتخصصة في تاريخ أرمينيا القديم، حيث قدمت شرحاً مفصلاً وافياً ومصوراً يشتمل على بعض الخرائط عن جغرافيا وتاريخ أرمينيا وعلاقاتها بالرومان واليونانيين والساسانيين قديماً والفارسيين أيضاً وكذلك المقارنة بين مساحتها وجغرافيتها قديماً وحديثاً وعن كونها أول دولة تعتنق المسيحية بالكامل وعن مراحل الحروب والاضطهادات الوثنية التي خاضتها أرمينيا حتى انتصرت في النهاية وعن بداية تجميع حروف الأبجدية الأرمنية وتميز أحرفها ومقاطعها الصوتية رغم اعتمادها على بعض الأحرف والأصوات اليونانية القديمة؛ وقد تميز عرضها بالممتع فعلاً من حيث الترتيب في سرد الأحداث وتأريخها وتسلسلها مع سلاسة استدعاءها لتلك المعلومات التي عرضتها بتمكن وكأنه تاريخها الشخصي بصوت مميز وجميل أسعدت جميع الحضور فعلاً وقد اختتمت الندوة بكلمة د. جمال كمال – الباحث في التاريخ الحديث والمعاصر والمتخصص في كتابات تاريخ الأرمن، والذي قدم نبذة عن تاريخ الأرمن في مصر في العصر العثماني، عن التجارة وخاصة مهن تجارية بعينها اشتهر بها الأرمن في مصر مثل تجارة الساعات والحرف الفنية الأخرى والمرأة الأرمنية وانتعاش دورها في تلك الحقبة؛ والكنيسة الأرمنية ودورها في المجتمع وعلاقتها بالكنيسة القبطية، كما قدم شرحاً وافياً عن الحى الأرمني في القدس الشريف، وذكر أنه أقدم الأحياء تاريخياً، وأنه أقدم من الحى اليهودي نفسه.



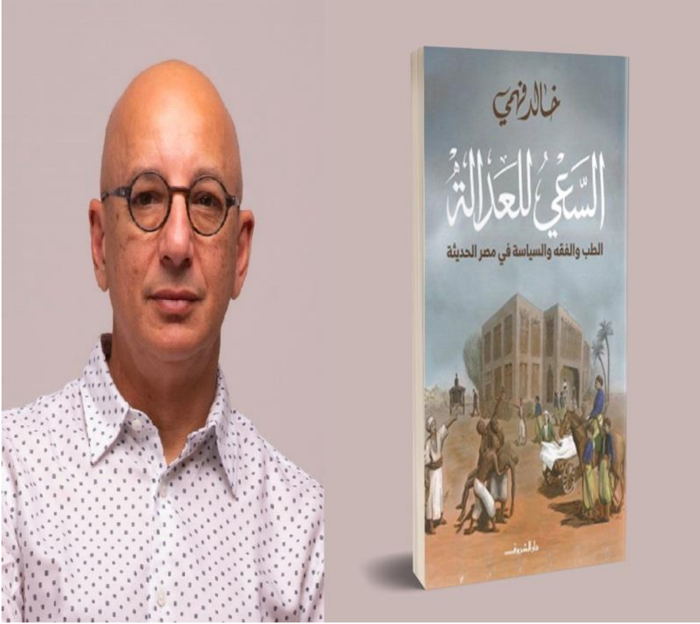


السعي للعدالة.. سردية الدولة الحداثية والناس العاديين

بقلم: أحمد محمد إنبيوه

في السنوات الأخيرة كان ثمة سعي لتناول المصريين أكاديميًا كفاعل في سرديات تاريخهم، سعي لجعل المنسيين أبطالاً بعدما كانوا – ولا زالوا بالمناسبة- في أعين السلطة مجرد تكملة أو خلفية صوتية لكل نظام سياسي مر على هذا الوطن. فالهم البحثي بدأ ينشد مؤخرًا تدوين اللا مدون من تواريخ العاديين، بفعل الأيديولوجيا تارة والنعرات الوطنية تارة، تلك النزعات التي كانت ترى في الجماهير الغفيرة مجرد مجموع إنساني، موجود فقط لأجل المشاريع القومية الوطنية التي تنتصر فيها النحن على الأنا. وبعض السرديات البديلة كان همها تفكيك مصر القرن التاسع عشر؛ إذ تحاول من جديد قراءة هذا القرن المثير في تاريخ مصر. غير أن هذه المعرفة التي إنتاجها عن مصر القرن التاسع عشر، لا تزال معرفة ناقصة؛ فمازلنا عاجزين عن قراءة يوميات المصريين في ظل عمل آليات التحديث على الأرض. ونحن حقيقة، في احتياج ماس لبناء سردية؛ تخبرنا عن تفاعل الناس العاديين مع الحداثة كمنتج يومي متداخل مع يومهم العادي. وعند النظر لعمل خالد فهمي البحثي نجده يتصدر مشهد ما يمكن تسميته بـ "السرديات البديلة". ويأتي كتابه الجديد "السعي للعدالة"، المنشور ٢٠٢٢ عن دار الشروق، انتصاراً جديداً لهؤلاء المنسيين.

بل ويُمثل سردية بديلة لحداثة تمت توجيهها لتكون عليهم لا لهم، فنحن نجد هنا أن خالد فهمي يدون مسيرة المقاومة حينا والمتعايشة أحياناً



مع هذه الحداثة السلطوية الساقطة عليهم من أعلى. في "السعي للعدالة" يستكمل خالد فهمي مشروعه الذي يعمل عليه منذ كتابه الأول، "كل رجال الباشا" منتصراً لأولئك القابعين أسفل الهرم، والمحرم عليه الالتصاق بالمتن الرسمي لسردية التاريخ المصري في القرن التاسع عشر؛ الناس العاديين ملاك الواقع، بشر المحروسة الذين لا يملكون سرديتهم الخاصة التي تعبر عنهم بإزاء سلطة كانت وستظل في مجملها غاشمة قاهرة لهم. ويأتي هذا، عبر كتابة متقنة غير متكلفة، تبتغي امتاع القارئ في جانب وإثاره شغفه وتحريك سحابة من الأسئلة داخل وعيه وإدراكه في جانب أخر.

فكتابة خالد فهمي في السعي للعدالة تحاول أن تقدم

إجابات على كثير من الأسئلة التي ظلت معلقة؛ من قبيل كيف عاش وتعايش المصريين مع حداثة القرن التاسع عشر في مصر، التي تغولت وابتعلت في جوفها حياة المصريين، لكن لم نر من قبل كيف كانت الحياة في باطن هذا الغول الحداثي. ومن ثم، نجد أن النص الذي أنتجه خالد فهمي بالمنتهى، تم بناءه على أنه انتصار لأدوار من تمت الحداثة على دمائهم وعرقهم. وبهذا نرى، أن دراسة خالد فهمي، تعمل على تحفيز ماكينات البحث عن العادي في قرن وصفه الجميع بأنه فارق، بل والأهم في تاريخ مصر الحديث .

هؤلاء البشر كيف تقبلوا تقنيات الدولة الحداثية التي تداخلت مع واقعهم اليومي واخترقت صيرورته؛ لتنتج رؤية شبه مكتملة عن الرعية المثالية من وجه نظرها، هؤلاء الذين عايشوا وعاشوا في أزمنة الانتقال العنيف في القرن التاسع عشر، هل تقبلوا كل ما أنتجته الدولة الخديوية من تقنيات، هل كان ثمة مقاومة، هل مارسوا سمتهم الألفي في التعايش واللعب بأدوات السلطة لكن بمنطقهم! هل استطاعوا هذا؟ وكيف كان سعي خالد فهمي منذ بدايات عمله على تاريخ مصر القرن التاسع عشر؛ محاولة تفكيك آلة الدولة الحداثية، عبر قراءة عملها اليومي على أجساد وعقول المصريين، رأينا هذا بداية من "كل رجال الباشا" ثم في "الجسد والحداثة". ومن ثم، يمكن القول إن "السعي للعدالة" يأتي استكمالا لتلك المحاولات، التي عمل من خلالها على قراءة رهان الباشا باستخدام المعرفة الغربية رجالاً قبل أن تكون أفكاراً؛ من أجل إقامة ماكينة ضبط هائلة للواقع المصري السائل، خلال سنوات نهاية القرن الثامن عشر، وسنوات الانتفاض الوطني التي عصفت ببقاء الفرنسيين على أرض المحروسة، واستمرت هذه السيولة الفائرة خلال الفترة الفاصلة ما بين رحيل الفرنسيس وتوليته واليًا على مصر في بيت القاضي في عام ١٨٠٥.

من خلال الضبطية والتطعيمات والإجراءات الصحية وتخطيط المدن.. إلخ. يمكننا أن نكتشف بعض من ميكانيزمات عمل آلة الدولة وتطورها من تقنيات ساذجة إلى درجة متقدمة من الدقة والانضباطية والاحترافية. ومن ثم فإن التأريخ الذي يعمل عليه خالد فهمي هنا، إنما يدور حول الحداثة كممارسة يومية، أو كيف يمكن كتابة تاريخ لمصر القرن التاسع عشر دون الانسياق لإغراءات وجهات نظر السلطة، أو السقوط في شرك الانبهار الدائم بما قدمه الباشا محمد علي، ما جعل كثير من الدراسات ترى في الباشا وجهوده انقطاعاً في خط زمني ومسيرة من الجهل سادت قبله، إلى أن جاء الرجل بهمة فتت الصخر الصوان؛ ليعود بنا إلى الأصول الحضارية في الطب والعلم والمعرفة. فحسب أحمد الشافعي وهو أزهري ذهب إلى فرنسا في بعثة لاستكمال تعليمه الطبي ثم أصبح في ١٨٤٧ أول مدير مصري لقصر العيني. كان يرى محمد علي "محي تمدن الإسلام"، وبعث الطب في مصر كما تنبعث العنقاء من الرماد". كان رهان خالد فهمي في "السعي للعدالة"؛ يذهب في اتجاه العمل على استخراج حيوات البشر العاديين من باطن السياقات الأرشيفية والمستندية الرسمية المعبرة بالأساس عن وجهات نظر السلطة، وعمل فهمي على متابعة السياقات والتوظيفات لمفاهيم نظرية كالعدالة والدستور في واقع سيال. إذ يقول "إن هدفي ليس متابعة مسار مفاهيم مثل الدستور أو العدالة من منابعها في أوروبا حتى نشرها في مصر. هذا الكتاب، في متابعته لنشوء وتطور مفاهيم مثل القانون والدولة والصحة العامة والنظافة والعدالة، وفي متابعته للتحولات الخطابية التي مرت بها تلك المفاهيم، فإنه يضعها في سياقاتها البيروقراطية والمؤسسية".

ومن ثم، نرى خالد فهمي قد جعل الجسد وحدة القياس الأولى والأساسية لديه لقياس فكرته ونموها وتطورها. "يعتبر هذا الكتاب الجسد الإنساني وحدة تحليله الأساسي، وينظر في كيفية دراسته كساحة تجلت فيها ممارسة سلطة الدولة ومقاومة الأهالي لتلك السلطة.

ويشدد هذا الكتاب في كل فصوله على الجسد كلحم وعظم وعلى كيفية محاولة مجالي الطب والقانون إخضاع ذلك الجسد لسلطة الدولة، ويتابع الكتاب ردود أفعال الأهالي إزاء تلك المحاولات الدؤوبة لتحويل

أجســـادهم إلى موضـــوع للرقـابة والتحكم. وبالتـالي، وللتشديد على الأهمية المركزية للجسد كموضوع للخطاب القانوني والطبي المهيمن، وكســـاحة لمقاومة تلك الهيمنة، فإن فصول هذا الكتاب قد تم تبويبها لتدور حول الحواس الخمس بتراتبيها التقليدية كما ترد في النظم الطبية الغربية والإسلامية: البصر والسمع، والشم، والتذوق، واللمس. والحواس هنا إنما هي أدوات توضـيحية لعرض وتفصـيل الركيزتين الأســاســيتين لهذا الكتاب –القانون والطب. وهكذا فإن الفصل الأول يستخدم حاسة البصر لعرض عمليات التشـريح. ويوثق الفصـل استجابة وردود أفعال عامة المصـريين إزاء التشـريح التعليمي والحجر الصـحي والمســتشـفيات والتطعيم ضـد الجدري كممارســات ومســاحات ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجال الطبي الحديث. ويثير ســؤالاً أكثر تحديدا وهو: كيف فهمت القطاعات المختلفة في المجتمع المصري هذه الممارسات والمساحات، وكيف تعايشــت وتكيفت معها؟ ويدور الفصــل حول تساؤل عما إذا كان عامة المصريين قد رأوا دروس التشريح التعليمي في قصـر العيني باعتبارها تدنيسًـا وانتهاكًا لحرمة الجســد الإنســاني، أم أنهم أكثر اهتمامًا بكون تلك المؤسسة الطبية مستشفى عسكريًا بالأساس".

بينما نرى خالد فهمي في الفصــل الثاني "يعرض الركيزة الأساسية الثانية لهذا الكتاب ألا وهي القانون، من خلال حاســة الســمع. بتتبع قضـية جنائية افتراضـية عبر كل درجات ومراحل التقاضي، وبالتركيز على القانون الجنائي، يصـف الكتاب النظام القانوني لمجالس السـياسـة ويناقش طبيعة تفاعلها مع المحاكم الشرعية التقليدية.

ويتحدى هذا الفصل الرؤية التقليدية المستقرة التي تصف التاريخ القانوني المصري في القرن التاسع عشر باعتباره قد مر بعملية علمنة قاطعة لا رجعة عنها. ويتسـاءل عما إذا كان من الممكن النظر إلى تطور القانون المصري في القرن التاســع عشــر لا باعتباره نقله من القانون الديني إلى القانون الوضعي، وإنما كنقلة من الكلمة المنطوقة المسموعة إلى الكلمة المكتوبة الصامتة.

وبالتالي فإن هذا الفصــل يثير تســاؤلاً عما إذا كانت العلمنة هي المنظور الصحيح لرؤية التحولات الكبرى التي شهدها القانون المصري، أم أن إضفاء الطابع البيروقراطي المؤســســي هو المنظور الأنســب لرؤية تلك التحولات. وعلاوة على ذلك، فإن هذا الفصـل بوصـفه لطريقة عمل نظام مجالس السياسة، وبتصويره لمجالس السياسة على أنها جزء من نظام الشــريعة التليد، يطرح ســؤالاً عما يمكن وصــفه بالحديث أو بالحداثة في هذا النظام المعقد الذي جمع بين مجالس السياسة والفقه في مصر الخديوية ."

أما في الفصـــل الثالث "يطرح تحليلاً للصـــحة العامة، ويوضــح أن برنامج الصــحة العامة المعقد الذي بدأ في القاهرة وامتد منها إلى عموم البلاد كان يقوم على نظرية الأوخام والهواء الملوث. فكما كان الحال في أوروبا، انقسم ممارسو المهن الطبية في مصر إلى معسكرين أحدهما يرى أن الأمراض تنتقل بالعدوى، والآخر يرى أنها تنتشــر بسـبب الأوخام التي تفوح من الجثث الآخذة في التحلل، والتي اعتبرها ذلـك المعســكر ســببا في تلوث الهواء وتسـميمه، ويتخيل هذا الفصـل كيف كان لرواية تاريخ القاهرة في القرن التاسع عشـر أن تختلف لو تتبعنا حاسة الشـم بدلا من حاسـة البصـر وأخذناها دليلاً. ويدرس الفصــل أيضــا ما إذا كان الطب الذي تمت ممارســته ودراسته في قصر العيني يمكن وصفه بالطب الكولونيالي".

وفي الفصــل الرابع يتناول خالد فهمي "حاســة التذوق ويتابع الطرق التي تمت بها مراقبة أسواق الطعام في القاهرة في القرن التاسـع عشـر. كانت الرقابة على الأطعمة مجرد جـزء واحـد مـن مســئـولـيـة المحتســب، أو صاحب السوق كما كان يسمى أحيانًا؛ ولذا فإن هذا الفصــل يلقي نظرة فاحصـــة على مفهوم الحســبة، وهو مفهوم معقد في الفقه يختص بالرقابة على الأســواق قدر اختصـاصـه بحماية الأخلاق. يتابع هذا الفصـل إذن تاريخ المحتسـب، ويدرس الطريقة التدريجية التي انتقلت بها العملية المفصـلة للتحقق من سـلامة الأطعمة في أسـواق القاهرة من المحتســب إلى مهنيين اســتحدثت مهنهم في القرن التاسـع عشـر؛ مهنيين مثل حكماء السـياسـة الذين كانوا يجولون في الأسواق لمراقبتها وأعضاء الجمعيات

الكيمياوية الذين كانوا يكشفون على الطعام للتأكد من مطابقته للمواصفات الصحية. وبالإضافة إلى دراسة كيفية نشوء هاتين المهنتين، يتمعن هذا الفصل في صحة ودقة القول إن إنهاء الحسبة كان وحدا من نتائج العلمنة ."

وفي النهاية نجد الفصل الخامس "يبرز حاسة اللمس. ويتناول تحديد الجلد كأسلوب من أساليب التعذيب، ويخص بالدراسة المتعمقة لائحة صدرت عام ١٨٦١ حظرت استخدام الجلد كوسيلة لانتزاع الاعترافات وكأحد أشكال العقاب المشروعة. ويدفع هذا الفصل بأن حظر التعذيب قد أتى نتيجة لأن هدفيه الأساسيين قد تجاوزهما العصر بنشوء بديلين لهما؛ وهما الطب الجنائي (الذي أصبح وسيلة أدق وأكثر كفاءة في إقامة البينة القانونية) والسجون (التي لم تعد في ذلك العصر أماكن للنفي أو الموت). وبالتدقيق في الدور المركزي والأساسي الذي لعبه الطب الجنائي في نظام العقوبات الناشئ والمستحدث، يتابع هذا الفصل الهياكل القانونية والمؤسسية المعقدة التي أصبح الطب الجنائي أحد عناصرها، ويدفع بأن فهم تلك الهياكل والكيانات أمر لا غنى عنه لأي فهم دقيق وصحيح للتغيرات المفاهيمية العميقة التي أنتهى بها الأمر إلى جعل العلمانية أمرا يمكن تخيله وإدراكه ."

حقيقة، ربما يمثل "السعي للعدالة"، قمة مشروع خالد فهمي في تفكيك آلة الحداثة وعلاقة النسيج العام من المصريين بها، يحاول الكتاب الغوص عميقاً في بنية الحياة زمن التحديث؛ على مستوى الصحة والتطعيمات والقانون وتخطيط المدينة، ويستكمل بهذا العيش في سياق احتواء الجيش للدولة الوليدة كما كان في "كل رجال الباشا" والصحة والبوليس كما كان "الجسد والحداثة".

ويغدو هذا مستوعباً إذا أدركنا أن فهمي عمل على مشروع "السعي للعدالة" أكثر من ١٥ عاما، كان خلالها ينتج وينشر عدد من الأفكار المرتبطة بالتحديث وتفريعاته، حتى استوت الثمرة في النهاية في شكل قالب واحد مبهر، وهو الذي نعمل على إعادة قراءته الآن. ومن المثير أن فهمي عندما أراد وضع سياقًا لكتابه جعله بأكمله يدور حول "العدالة"، لا كقيمة أخلاقية فردية، بل كمسعى ومظلة مؤسسية، يرغب الجميع في الانضواء تحتها، عبر تسخير كل الممكنات التي أتاحتها الدولة الحداثية من أجل صيرورة عملها وضبطها لهؤلاء البشر. فكانت النتيجة، أنهم أعادوا استخدامها في كثير من الأحيان لصالحهم. وهذا بدوره يقدم نموذجًا فريدًا لكيفية التعامل مع منتجات مؤسساتية، تبدو للوهلة الأولى ولمن يقرأ تاريخ مصر قراءة سطحية منبته الصلة بحيواتهم أو نظمهم الأخلاقية والدينية. لكنها في الواقع وعبر عمليات النحت في الأرشيف المصري كما فعل خالد فهمي، كان ثمة تاريخ آخر لا نعلم عنه الكثير. تاريخ ينسج حياة المصريين العاديين على إيقاعات حداثية بالنكهة "البلدي"، تاريخ يرى في "العدالة" وعيًا جمعيًا ألفيًا استدعاها المصريين لفك مغاليق شفرات البنية الحداثية لنظم ومؤسسات دولة الباشا الجديدة عليهم.

ولنستعير ما كتبه خالد فهمي لفض مغاليق العلاقة ما بين السلطة بمنتجاتها وتقنياتها الحداثية، والمصريين العاديين. "ليس من الصواب القول إن المصريين قد شعروا بالاغتراب، أو أصيبوا بصدمة حضارية من جراء الابتكارات العديدة التي شهدها المجتمع المصري في القرن التاسع عشر. لقد اعتمد "السعي للعدالة" أساساً على السجلات الوفيرة للمراسلات الحكومية آنذاك.

وأبرز ما يتضح من تلك المراسلات هو الإحساس العميق بالثقة في النفس الذي عبر عنه موظفو الحكومة في مكاتباتهم. لا يبدو أن الانتشار الواسع للممارسات المبتكرة قد ولّد إحساساً بالقلق لدى رجال الضبطية أو الأجزاجية أو الأطباء أو أعضاء مجالس السياسة الذين أوكِلت لهم مهمة تطبيق تلك الممارسات.

قد تكون علوم رسم الخرائط والإحصاء والكيمياء الجنائية ومناظرة الجثث والطب التشريحي الإكلينيكي علوماً منقولة من أوروبا، لكن الدافع لنقلها إلى مصر لم يكن إحساساً بالقلق يضرب بجذوره في أزمات هوية.

بل إن تبني تلك الابتكارات لم يُوصف قط بأنه محاولة "للحاق بالغرب"، أو "لسد الفجوة الفاصلة بيننا وبين أوروبا"، ولم يعتبر نتيجة لإحساس بالتيه والضياع.

لم يكون موضوع الهوية مطروقاً أصلاً ."
ويكمل فهمي "كان رد فعل المصريين في المراكز الحضرية وفي الريف إزاء التغيرات العميقة التي شـهدها المجتمع خلال القرن التاسع عشر أكثر دهاءً ودقة. ومثلهم مثل الإداريين والموظفين الذين أداروا دفة جهاز الحكومة، لا يبدو أن عامة المصريين قد رأوا الممارسـات الناشئة في الدولة الحديثة من منظور هوياتي. لقد كانت تلك الممارسـات عميقة الأثر بقدر ما كانت غير مسبوقة، وبقدر ما تضمنت قدراً لا مثيل له من المساس بالحياة الشخصية. فبحلول منتصف القرن التاسع عشر، أصبح لزاماً على المصريين القيام بتسجيل مواليدهم عن الولادة، وبتطعيم أطفالهم ضد الجدري، وبحمل تذاكر مختومة عند تنقلهم من قرية إلى أخرى، وبالتواصل مع الضبطية ومجالس السياسة طلباً للإنصاف في شكاواهم؛ وأعيد تنظيم مدنهم وأحيائهم السكنية على أساس قواعد النظافة والصحة العامة، وخضعت أسواق طعامهم لتفتيش ضبطية الصحة المنشأة حديثاً، وكان يتحتم عليهم إبلاغ السلطات لمناظرة جثث موتاهم قبل السماح بدفنها. ومع ذلك لم ترد في السجلات التاريخية أي إشارة إلى اعتراض المصريين على هذه الممارسات غير المسبوقة باعتبارها انتهاكاً لمعتقداتهم أو مساساً بقناعاتهم الدينية. ومن الغريب أن الإداريين الأوروبيين العاملين لدى الحكومة الخديوية، والمفترض أنهم كانوا "مستنيرين"، هم الذين اعتبروا تلك الممارسـات مخالفة للمفاهيم الدينية المحلية. لقد كان كلوت بك، مؤسس ومدير مدرسة طب قصر العيني، هو الذي افترض أن التشريح التعليمي سيواجه معارضة من المسلمين، لأنهم يؤمنون بأن الجثث تشعر بالألم، كما اعتقد أن عزوف الفلاحين عن التطعيم ضد الجدري له أسباب دينية".
لكن كل هذا لا يعني رضاء الناس عن الدولة وتقنياتها بشكل كامل، بل أنهم استخدموا هذه التقنيات لمعايشة زمن التحديث، أي أنهم اختاروا أن يتعايشوا مع هذه الدولة وفق تقنياتها، لكن بطريقتهم هم.
"لم تكن كفاءة الدولة المصرية الحديثة ولا ثقتها بنفسها تُعنيان بالضرورة تمتعها بالشعبية أو بالمشروعية في أعين رعاياها. فلم يشعر الأهالي يوماً أن هذه الدولة دولتهم، أو أنها تعمل على رعايتهم وتسهر على راحتهم. وحتى عندما تعلق الأمر بتقنية جديدة أو تشريع جديد يبدو فيه صالح الناس، مثل التطعيم ضد الجدري، كان الأهالي دوماً يتوجسون خيفة من الهدف وراء هذه التقنيات وتلك التشريعات. ولم يساعد الطابع العسكري الذي أدخِلت به ولأجله هذه التقنيات في تقليل ريبة الأهالي من ممارسات الدولة وألاعيبها". بل ولم تغب المقاومة عن هذا التدخل والتداخل السافر من قبل الدولة في حيوات ودقائق معيشة المصريين اليومية. فـ "لم يتلق عامة المصريين دوماً أوامر الدولة أو تقنياتها الجديدة بسلبية وادعة مستسلمة، ولكنهم لم يلجئوا دوماً للمقاومة المسلحة أو للتمرد العلني على خطاب الدولة الحديثة وممارستها. فقد لجأ المصريون في سعيهم للعدالة إلى تبني أساليب متنوعة وإستراتيجيات مختلفة للتكيف والتعايش مع الدولة وأجهزتها. في إطار تلك العملية، تم تشكيل الدولة وصقلها، ثم إعادة تشكيلها بعد ذلك استجابة لمختلف محاولات التكيف والتعايش والتحايل والمقاومة من جانب الأهالي. وقد نجحت الدولة المصرية بشكلها الحديث في التعامل مع هذه العلاقة التفاعلية بين السلطة والمقاومة".
ومن ثم يمكن القول "يرسم السعي للعدالة صور العديد من حالات التفاعل بين السلطة والمقاومة. لكن أوضح صور التفاعل، تتجلى في التعامل مع الأموات. ولعل سياسات الموت هي أفضل مجال لرؤية ورسم تعامل عامة المصريين مع الدولة المصرية الحديثة. لقد تراوح هذا التعامل من السلبية الوادعة إلى التقويض الصامت، إلى المصادرة النشطة والفعالة لخطاب الدولة وممارساتها.. ففي مستهل الفصل الثالث تعرفنا على فضل واسع، وهي شابة لا حول لها ولا قوة رحلت من الصعيد إلى القاهرة باحثة عن الرجل الذي حبلت منه.
ورأيناها تلد طفلاً ميتاً، وتدفن الجثة بشكل عشوائي مدعية جهلها باللوائح القاضية بتسجيل المواليد والإبلاغ عن الوفيات.

وفي الفصل الأول، قرأنا حكاية شيخين مكفوفي البصر يديران كُتاباً لتحفيظ القرآن في منطقة الإمامين جنوب القاهرة، وقيام هذين الشيخين بدفن واحد من تلاميذهما دون إبلاغ السلطات، بحجة أن أي تأخير في مثل هذا الموضوع [أي الدفن] ليس من الصواب. ولكن الفصل الأول يروي أيضاً قصة لجوء أهالي الإسكندرية إلى كبار رجال الدين فيها لرفع عريضة تشكو من إجراءات الحجر الصحي التي فُرضت بهدف احتواء الطاعون الذي اجتاح المدينة عام ١٨٣٤.. وأخيراً، فقد شهدنا في الفصل الأول أيضاً مثالاً يبعد كل البعد عن هذه السلبية والتقويض الصامت ألا وهو قيام أهالي بورسعيد بالتواصل النشط مع السلطات المحلية، ومصادرتهم لخطاب تلك السلطات عن طريق تقديمهم لعريضة شديدة البلاغة مكتوبة بخط عربي منمق جميل تشكو من الطبيب الأوروبي المقيم، وتوجه له اتهاماً بعدم القيام بجولاته اليومية وبإهمال واجبه في القيام بمناظرة الجثث بنفسه ."

بل ويمكن الإضافة "يتجلى هذا التكتيك – أي مصادرة عامة المصريين للأساليب التي اتبعتها الدولة الحديثة واستخدامها للدفاع عن مصالحهم – في القضايا العديدة التي أصر فيها الأفراد العاديون، لا مسئولو الدولة، على تشريح الجثث لتحديد سبب الوفاة. ففي حين أصرت الدولة على التشريح كوسيلة لكبح جماح الأوبئة والجرائم الخطيرة على حد سواء، كان "السعي للعدالة" هو دافع عامة المصريين في المطالبة بالتشريح والإصرار عليه..

وأفضل قصة توضح استعداد المصريين وقدرتهم على مصادرة ممارسات الدولة الخديوية، بما فيها الطب الجنائي، واستخدامها لحماية حقوقهم وتحقيق العدالة هي قضية محبوبة. محبوبة شابة من قرية صغيرة تابعة لمديرية المنيا في صعيد مصر. تلخص قصة محبوبة، ربما على نحو أفضل من أي من القضايا التي تم سردها في هذا الكتاب، المعنى الحقيقي لإنشاء الدولة الحديثة في أعين المصريين، وكيف لجأت تلك الدولة الحديثة إلى أساليب عديدة للتحكم في أجسادهم، وكيف قاوم المصريين تلك الأساليب في محاولة باسلة لاسترداد أجسادهم، وسعياً للعدالة.

في صيف ١٨٥٧، سيق علي جاد الله – زوج محبوبة – للعمل بالسخرة في إنشاء خط سكة حديد القاهرة السويس. وفي طريقه للقيام مرغماً بهذا العمل فر علي واختفى عن الأنظار، مما دعا شيخ حصة قريته محمد الشعراوي للبحث عنه ومحاولة الوصول إليه. ذهب الشعراوي إلى بيت علي معتقداً بأنه قد يكون قد فضّل الاختباء في حضن أسرته الصغيرة المكونة من زوجته محبوبة وحماته وابنهما اليافع. لم يعثر عليه شعراوي في بيته فما كان منه إلا أن ألقى القبض على محبوبة بدلاً منه وزجّ بها في سجن العهدة. ضربها شعراوي بقسوة بالغة "على صدرها وقلبها" خلال فترة احتجازها لحملها على الاعتراف بمكان زوجها. وكلما استمرت محبوبة في إنكار معرفتها بمكان اختبائه، زادت ضربات الشعراوي قسوة وعنفاً. عندما رأى السجان أن حالة محبوبة قد أخذت في التردي السريع، نصح الشعراوي بالإفراج عنها حتى يدفع عن نفسه أي شبهة جنائية في حالة موتها داخل الحجز. قَبِل الشعراوي النصيحة وأعاد محبوبة إلى بيتها، ثم ألقى القبض على "ولدها الصغير" بدلاً منها. استمرت حالة محبوبة في التدهور. وعندما أدركت أنها قد دخلت في طور الاحتضار، أرسلت شقيقها إلى الشعراوي ليتوسل إليه أن يطلق سراح ابنها حتى تلقي عليه نظرة أخيره قبل موتها. قَبِل الشعراوي رشوة قدرها مائة قرش، وبرغم ذلك لم يتراجع عن رفضه السماح للولد برؤية أمه للمرة الأخيرة. بعد ذلك بفترة قصيرة، لفظت محبوبة أنفاسها الأخيرة".

ونستكمل السياق السردي لخالد فهمي لهذه القضية المثيرة "في ذلك الوقت خرج علي من مخبئه، وذهب مع حماته إلى المحكمة الشرعية المحلية لتوجيه الاتهام إلى الشعراوي بالتسبب في موت محبوبة. وضع الزوج الأرمل والأم الثكلى جثة محبوبة "مغسلة ومكفنة.. فوق نعش وعرف عن ضربها من الشيخ [الشعراوي] ويريد الكشف عنها. لكن القاضي رفض طلبهما قائلاً إن مثل هذه المناظرة من خصائص الحكيم"، ومضى بعد ذلك لتناول القضية وفقاً لقواعد الفقه، وقام باستجواب الشعراوي عن الاتهامات الموجهة إليه، لكنه أنكرها كلها جملة وتفصيلاً.

سأل القاضي المدعين بعد ذلك عما إذا كان لديهم أي شهود على ضرب محبوبة، فقالا إنها قد ضُربت داخل السجن، ولذلك يستحيل عليهما تقديم أي شهود. فسألهما بعدها ما إذا كان لديهما أي شهود على حالة محبوبة بعد إطلاق سراحها من السجن وعودتها إلى بيتها، فردا بقولهما إن محبوبة كانت امرأة تعيش في فقر مدقع، ولذلك لم يأت أحد لزيارتها.

لم تستقبل أي زوار قبل موتها. أخيراً طلب منهما القاضي استدعاء مُغسلة المتوفيات في القرية لاستجوابها عما إذا كانت رأت أي رضوض أو كدمات على الجثة عند تجهيزها للدفن. واستكمالاً لسوء الطالع، كانت أم محبوبة هي المرأة التي بتلك الطقوس في القرية بما يعني أن شهادتها مجروحة، ولا يمكن قبولها بحكم صلة الدم بينها وبين المتوفاة.

بسبب عدم توفر البينة (أي اعتراف المتهم أو شهادة شهود عيان)، لم يكن بوسع القاضي إلا أن يحكم للورثة باليمين، ولكنهم "أبوا تحليفه ."ويُكمل فهمي "لكن هذا الحكم لم يدفع بعلي وحماته إلى الاستسلام. ففي مواجهة ما اعتبراه "تعصب ناظر [الزراعة] والقاضي والمشايخ"، أخذا جثة محبوبة ووضعاها على ظهر جمل وجابا أرجاء المديرية باحثين عن حكيم سياسة ليقوم بمناظرة الجثة والكشف عليها. ووجدا ضالتهما في بندر قلوصنا "بمدرية المنيا"، في شخص وكيل الحكيم المقيم الذي وافق على طلبهما. وكتب في تقريره أنه قد "وجد أثر ضرب شديد بجريدة من صدرها لحد وجهها ومن كتفيها لحد مرفقيها وطافح الدم من فمها". وختم التقرير بالقول إن وفاة محبوبة كانت بهذا السبب. شعر على وحماته بأن التقرير قد أثبت صحة ادعائهما، و"تمسكا بما توضّح بكشف وكيل الحكيم"، وأخذا التقرير إلى ناظر قلوصنا وقدّما دعواهما وفقاً لقواعد نظام السياسة.

بعد استجواب المديرية لجميع الأطراف والمدعين والمتهمين، وبعد أخذ التقرير الطبي بعين الاعتبار الكامل، حكم مجلس السياسة بالمنطقة، مجلس الفشن، بمسئولية الشعراوي عن موت محبوبة، وأصدر حكمه عليه "باستخدامه بأشغال المديرية مدة خمسة سنوات". وعندما نظر مجلس الأحكام في القضية، أقر الحكم الصادر عن مجلس الفشن، لكنه حكم بأن يقضي الشعراوي مده حبسه في ليمان إسكندرية الشهير ."

باختصار نصل إلى الخلاصة من وجهة نظر خالد فهمي في هذه القضية. "تكشف حكاية محبوبة على نحو أوضح وأجلى من كل القضايا المماثلة عن درجة نجاح الدولة المصرية، خلال أقل من نصف قرن من الزمان، في إحكام سيطرتها على كل موارد البلاد، كما تصور هذه القضية مهارة المصريين في التكيف والتعايش مع هذا الجهاز الجديد الذي أحكم قبضته على كل جوانب حياتهم. من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت. تكشف هذه القضية المأساوية عن أن معظم سمات تلك الدولة الحديثة لم يكن مبعثاً لسعادة المصريين. كان خط سكة حديد القاهرة – السويس الذي انتهى العمل فيه بعد موت محبوبة بسنة واحدة، مثالاً جيداً على الكفاءة الدبلوماسية والتقنية التي تمكنت الدولة المصرية من تحقيقها في أواسط القرن التاسع عشر.

كما أنه يضرب في نفس الوقت مثالاً واضحاً على كفاءة الرقابة الشرطية وإحصاءات السكان الدقيقة التي مكنت من سوق آلاف الفلاحين، مثل علي جاد الله، للعمل بالسخرة في إنشاء خط السكة الحديد بين المدينتين. وفي حين كان يحق لمصر أن تفتخر بكونها أول بلد ينشئ خطوط السكة الحديد خارج أوروبا وأمريكا الشمالية، لم يكن إنشاء خط القاهرة – السويس إلا كارثة محققة بالنسبة إلى محبوبة؛ فقد سيق زوجها للعمل بالسخرة،

واختطف شيخ حصة قريتها ابنها وحبسه، ودفعت هي نفسها حياتها ثمناً لمشروع لا تربطه أدنى صلة بسعادتها وكرم عيشها.

ونستكمل الخلاصة مع خالد فهمي ما توضحه قضية محبوبة بأجلي صورة هو السرعة والمهارة التي أبداها المصريين في استيعاب الأساليب المبتكرة التي أنشأتها الدولة الحديثة، وتوظيف تلك الأساليب في خدمة أهدافهم الخاصة.

لم تنشأ تلك الدولة الحديثة بغرض خدمة المصريين. وشددت من سيطرتها على أجسادهم وتحكمت بشكل غير مسبوق، بل مدت آفاق تلك السيطرة إلى ما بعد الموت، وأخضعت جثث الموتى لكشف متمعن ودقيق. ولكن، كما أوضح إصرار زوج محبوبة ووالدتها، لم يدخر المصريون في سعيهم للعدالة أي جهد يمكن أن يدفع تلك الدولة إلى خدمتهم. ولم يوقفهم أي شيء في سعيهم المستمر من أجل العيش في سلام والموت بكرامة .

يمثل السعي للعدالة بالمنتهى محاولة مثيرة من خالد فهمي لاستكمال مدونته الفكرية القائمة على إتاحة المساحة وفتح مسام التفكير الواعي في مسائل كبرى، تتصل بإشكاليات ألفية تدور في فضاء العلاقة بين الجماهير والسلطة. وربما تكون الإشكالية الكبرى التي كانت وستظل؛ من يملك مصر؟ وليس المقصود هو الكيان المعنوي، بل الأصول المادية والبشرية، وهذا يستتبع الحديث عن الكيفية التي كانت تدار ماكينة الدولة، والماهية التي امتلكتها الدولة في القرن التاسع عشر لإدارة الماكينة البشرية. لقد كان هذا متسقاً مع كون دولة الباشا كانت لا تعتد بالمصري، من حيث هو كينونة فردية، إلا بالوثائق. وإذا ما حضرت الوثائق، يعدو حضوره مكملاً لا أساسياً؛ فما دامت ذاته القانونية، التي يتم التعبير عنها بوثيقة ما، موجودة ففيها الكفاية. ولهذا، استمرت سلطة الدولة في القرن التاسع عشر، تتعامل مع بشرها بوصفهم موارد اقتصادية محتملة. من ثم، كان هذا التعقيد الذي ولدته حداثة القرن التاسع عشر عصي على الفهم منذ الوهلة الأولى، فكان من العصي إدراك تجربة الباشا بوصفها حداثة شبيهه بالحداثة الأوروبية؛ إنما هي كانت حداثة وفق الذائقة السلطوية المصرية.

ولهذا، كانت أفكار الاستجابة الحذرة والمقاومة الناعمة، هي الاستراتيجية التي اتخذتها الجماهير أداة للتفاعل مع السياقات السلطوية الحاكمة. فبكلمات خالد فهمي "لم يتلق عامة المصريين دومًا أوامر الدولة أو تقنياتها الجديدة بسلبية وادعة مستسلمة، ولكنهم لم يلجئوا دومًا للمقاومة المسلحة أو للتمرد العلني على خطاب الدولة الحديثة وممارساتها. فقد لجأ المصريون في سعيهم للعدالة إلى تبني أساليب متنوعة وإستراتيجيات مختلفة للتكيف والتعايش مع الدولة وأجهزتها. وفي إطار تلك العملية، تم تشكيل سياسة الدولة وصقلها، ثم إعادة تشكيلها بعد ذلك استجابة لمختلف محاولات التكيف والتعايش والتحايل والمقاومة من جانب الأهالي. وقد نجحت الدولة المصرية بشكلها الحديث في التعامل مع هذه العلاقة التفاعلية بين السلطة والمقاومة". أي أن المصريين، في القرن التاسع عشر، واجهوا غشوميه سلطة الدولة وعنفها الحداثي، بتقنيات متوارثه ألفيا في التعامل مع العسف. وربما كانوا يملكون قدرا من الإدراك أنهم الملاك الأصلاء للمحروسة، لهذا كان عليهم التعايش مع العسف، كونه بالنهاية، وحسب متوالية التاريخ المصري الألفي، زائل بينما هم الدائمين ولا شك.



حوار مع الأستاذة روزا مجرد تشيان عن الأرمن في أستراليا

أجرى الحوار: عطا درغام

تزايدت أعداد الأرمن المهاجرين إلى أستراليا بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك بعد تعديل سياسة الهجرة في أستراليا وسياسة التنمية الاقتصادية، فتوافد الأرمن من البلدان المجاورة، وفي الخمسينيات توافد الأرمن من سوريا ولبنان وقبرص ومصر والهند وإندونيسيا والصين ودول أخرى إلى أستراليا حتى وصل عدد الأرمن في أستراليا إلى ما يقرب من ٦٠ ألف أرمني.

وعن الجالية الأرمنية في أستراليا تحاورت "مجلة أريك" مع السيدة " روزالين مجردتشيان " مصرية أرمنية، تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة عين شمس، وهاجرت مع زوجها إلى أستراليا بعد قرارات التأميم التي أصدرها عبد الناصر في مصر. حصلت في أستراليا على دراسات في السياحة والمحاسبة، ولديها ثلاث بنات، الأولي تترأس شركة والدها والثانية مذيعة بالإذاعة والتلفزيون والصغري تعمل محامية... وللسيدة روزالين حضورها الاجتماعي والثقافي بين الجالية الأرمنية في أستراليا.

متي بدأ الوجود الأرمني في أستراليا...؟ وما هى الأماكن التي تشهد تمركز الأرمن في أستراليا؟

بدأ الأرمن في الاستقرار في أستراليا في خمسينيات القرن التاسع عشر عندما قام التجار الأوروبيون بطرد الأرمن من التجارة في جنوب شرق آسيا، فتوجهوا ناحية أستراليا، التي جذبت الأرمن بمعادنها، وخاصة مناجم الذهب. ومع بداية القرن العشرين، والفشل في العمل



بالمناجم بدأ الأرمن بالتمركز تدريجياً في المدن الكبيرة، خاصة في "ملبورن "و" أديلايد"، فعملوا بشكل أساسي في التجارة الصغيرة والحرف اليدوية، وفي بعض الأحيان كبحارة على السفن.

في عام ١٩١٨، وبعد نجاة عدد قليل من الإبادة الأرمنية وبمساعدة المتبرعين الأستراليين الأرمن، استقروا في (سيدني) و(ملبورن)، وكذلك في أجزاء أخرى من أستراليا، وانخرط معظمهم في الحرف اليدوية، والتجارة الصغيرة، وفي الصناعة، وعدد قليل منهم في الزراعة. بعد الحرب العالمية الثانية، تغيَّر الوضع عندما تم تعديل سياسة الهجرة في أستراليا وسياسة التنمية الاقتصادية، بدأ توافد الأرمن من الصين وسنغافورة وإندونيسيا

ودول جنوب شرق آسيا الأخرى، حيث كانوا مختلفين بشكل كبير، لأنهم يعرفون عدة لغات ولديهم مؤهلات مهنية عالية، وفي الخمسينيات توافد الأرمن من سوريا ولبنان وقبرص ومصر والهند وإندونيسيا والصين ودول أخرى في أستراليا.

وخلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، أدى عدم الاستقرار في مصر وسوريا، و الحرب الأهلية في لبنان إلى هجرة بعض الأرمن إلى أستراليا، وتضم مدينة "رايد" أكبر كثافة أرمنية في سيدني حيث يصل عدد سكانها إلى ١٥٠٠٠ نسمة ، تليها مدينة "ويلوبي " ومدينة "وارينجاه."

وكم يبلغ عدد الأرمن في أستراليا؟

يوجد ما يقرب من ٥٠ ألف إلى٦٠ ألف أرمني في أستراليا، حيث تزايدت أعداد الأرمن الأستراليين ليصبحوا أحد أكثر الجاليات الأرمنية أهمية في جميع أنحاء العالم، وواحدة من أكبر الجاليات الأرمنية في العالم الناطق باللغة الإنجليزية.

والجالية الأرمنية في أستراليا ليست كبيرة مثل الجاليات الأرمنية الأخرى في الشتات، لكنها لا تزال قوية للغاية مع الازدهار الاقتصادي لأستراليا.

ما الذي ساعد على تدعيم الوجود الأرمني في أستراليا؟

بفضل الجهود والمساعدات التي قامت بها (الرابطة الأسترالية الأرمنية المتحدة) التي تأسست في سيدني عام ١٩٧٤م، بمبادرة من مجموعة من الشخصيات الوطنية الأسترالية، وكانت تهدف إلي المساهمة في تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأرمن في أستراليا ، ومساعدة الأرمن الذين هاجروا إلى أستراليا ، وحماية الحقوق المدنية للأرمن الأستراليين من خلال إقامة علاقات مع الهيئات الحكومية والمجتمعات الأسترالية الأخرى، وتعمل علي تنظيم الأحداث الثقافية والدينية والدورات التعليمية، وتقديم المساعدات لتلك الجمعيات التي تقوم بأنشطة الحفاظ على الأرمن.

ماذا عن الكنيسة الأرمنية في أستراليا؟

تأسست أبرشية أستراليا ونيوزيلندا " للكنيسة الرسولية الأرمنية " في عام ١٩٦٨م ، وبدأت الحياة الكنسية للمجتمع الأرمني الأسترالي في التبلور في الخمسينيات من القرن الماضي ، وكان "أسوغيك غازاريان" أول رجل دين أرمني جاء إلى أستراليا في عام ١٩٥٤م ، وعمل علي تنظيم مجتمعات كنسية وإدارات كنسية في (سيدني) و(ملبورن) دون وجود مبنى للكنيسة ، وتم تكريس أول كنيسة للقيامة المقدسة في سيدني في عام ١٩٥٧م ، و"كنيسة السيدة العذراء " في (ملبورن) عام ١٩٦٢م وتتم إدارة العمل القومي والروحي والتربوي للمجتمع الأسترالي الأرمني من قبل مجلس الأبرشية الحالي المكون من ٧ أشخاص (٤ من سيدني و٣ من ملبورن) برئاسة رئيس الأبرشية ، وفي المدن التي لا توجد فيها كنائس يعتني القس الزائر بالاحتياجات الروحية للأرمن. وأيضًا مجتمعات أرمنية كاثوليكية وإنجيلية صغيرة لها كنائسها الخاصة في سيدني.

أكثر من ٩٠٪ من الأرمن الأستراليين هم من أتباع " الكنيسة الأرمنية الرسولية المقدسة"، وحوالي ٧٪ من الكاثوليك (توجد كنائس أرمنية كاثوليكية في ملبورن وسيدني). يعيش أيضًا عدد صغير من الأرمن الإنجيليين في أستراليا ولديهم كنيستهم في سيدني.

ماذا عن التعليم الأرمني في أستراليا: مناهج التعليم والمدارس؟

تأسست أول مدرسة أرمنية في أستراليا عام ١٩٦٠ في (سيدني)، وحاليًا هناك ثلاث مدارس يومية وست مدارس أحد ملحقة بالكنائس، وهذه المدارس :

مدرسة القديس "كريكوريوس المنور"، تأسست عام ١٩٨٥ تحت رعاية " الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية " في (سيدني)، ويدرس بها حوالي ٢٥٠ طالب وطالبة تحت إشراف الحكومة الأسترالية، ويتم فيها تدريس اللغة الأرمنية والتاريخ والفنون.

مدرسة "أرشاك وصوفي چولست"، تأسست في (سيدني) في عام ١٩٨٦، بتبرع من "صوفي وأرشاك چولستيان" (چالستيان)، تحت رعاية اتحاد "هامازكازيان " الثقافي، وتُشرف عليها الدولة، ويتم تدريس فيها اللغة الأرمنية

والتاريخ والدين، ويدرس بها حوالي ٣٠٠ طالب .

مدرسة " ألكسندر"، التي تأسست في عام ١٩٩٠م، و تتبع المدرسة خطة وزارة التعليم في (نيو ساوث ويلز)، ويدرس فيها اللغة الأرمنية والتاريخ والدين. لديها ٧ فصول، و٧٠ طالب وطالبة.

ما هى أهم المنظمات والجمعيات الأرمنية في أستراليا وأبرز أنشطتها؟

ليس للأرمن في أستراليا الكثير من المنظمات مثل الأرمن في العديد من الدول الأخرى، وعلى الرغم من ذلك، أنشأ الشتات الأرمن في أستراليا منظمات مجتمعية وفتحت منظمات الشتات والأحزاب السياسية فروعاً لها في أستراليا.

ومن هذه اللجان: "اللجنة الوطنية الأرمنية في أستراليا (ANCA)"هي أكبر منظمة أرمنية أسترالية تشمل أهدافها الرئيسية في التعبير عن قضايا الأرمن، وكذلك أولئك الذين يعيشون في أستراليا، ورفع مستوى الوعي لأرمينيا حرة وموحدة ومستقلة، والتعبير عن الرأي العام الأرمني الأسترالي بشأن المسائل السياسية، والعمل كحلقة وصل بين المجتمع والسلطات المنتخبة.

ولا تزال تواصل وتساعد الأرمن الذين يعيشون في أستراليا وخارجها من خلال جمع التبرعات المستمر، وتقدم المنح الدراسية، وتتناول الموضوعات المهمة، وتجمع التبرعات لصالح صندوق أرمينيا، وساهمت فى مكافحة كوفيد ١٩، وكذلك توفر ترابط الأرمن في كلا البلدين – أستراليا وأرمينيا وتركز على التواصل المهني.

وجمعية " الاستراحة الأرمنية " التي تأسست في عام ١٩٧٩ بمبادرة من مجموعة من النساء الأرمن في (سيدني)، كان الهدف إنشاء دار لرعاية المسنين الأرمن، ولديها ١٢ شقة سكنية للمسنين تسمى "سبيتاك" تخليدا لذكرى ضحايا زلزال "سبيتاك "عام ١٩٨٨، وغيرهما من المنظمات والجمعيات.

ما المجالات التي برز فيها الأرمن في أستراليا.. ومن هم أشهر الشخصيات الذين برعوا في هذه المجالات...؟

ثلث الأرمن الأستراليين يعملون عمالًا، ومنهم عدد كبير من الحرفيين (خاصة الجواهرجية) والتجار، وموظفي الخدمة المدنية والصناعيين الكبار، والمتوسطين، والمحامين، والأطباء.

ومن أشهر الشخصيات السيدة "أچلاديس بريچيكليان" – عضو برلمان نيو ساوث ويلز، ورئيس وزراء نيو ساوث ويلز، و "فيك دارشينيان "– ملاكم وبطل العالم، و"چورچ دنيكيان" – مقدم أخبار الشبكة العاشرة، و" بريان چورچيان" – يُعتبر أنجح مدرب كرة سلة في أستراليا، وأكثر من ذلك بكثير من بين الأرمن الأستراليين البارزين.

هل يمارس الأرمن العمل السياسي.. وما أبرز مظاهر هذا العمل...؟

ينشط "الاتحاد الثوري الأرمني" في المجتمع الأرمني الأسترالي منذ عام ١٩٦٤، وكان هدف المجموعة الكونفدرالية الأولى هو القيام بأعمال بتنظيم الجالية الأرمنية في أستراليا وتطورت المنظمة من مجموعة إلى لجنة ثم إلى لجنة مركزية، وتعمل لجنة "دات" الأرمنية ونقابات الشباب تحت قيادة " الهيئة الإقليمية للحزب الوطني الديمقراطي الأرمني"، الذي يهدف إلى تثقيف الأطفال الأرمن بالروح الوطنية، ولديه هياكل تنظيمية في (سيدني) و(ملبورن).

تأسس فرع " الحزب الليبرالي الإطاري" (FPA) في أستراليا عام ١٩٧٦، ولديه مجلس للحقوق الأرمنية، يقوم بالتعريف بالقضية الأرمنية ونزاع " أرتساخ ''، ولهذا الغرض يقيم اتصالات مع رجال الدولة الأستراليين، ويقوم النادي بأنشطة وطنية واجتماعية وثقافية، وينظم حملة

لجمع التبرعات لصالح أرمينيا.

تأسست الهيئة الحاكمة للمنطقة الأسترالية لحزب "الهنشاك" الاشتراكي الديمقراطي في عام ١٩٨٣ في (سيدني)، وأنشأ لجنة "الدفاع عن حقوق الأرمن" التي تنظم إحياء ذكرى الإبادة، ومحاضرات عامة وتجمعات سياسية وتعمل اتصالات مع رجال الدولة الأستراليين، وكذا تأسس فرع (سيدني لاتحاد الجيل الجديد الثقافي) في عام ١٩٨٣ .

ويعمل الفرع الاسترالي لاتحاد الشباب "تخروني" منذ عام ١٩٨٣، ويقوم بإحياء ذكرى الإبادة، وعمل محاضرات سياسية، وتجمعات شبابية.

هل للأرمن في أستراليا أعيادهم الخاصة ...؟

الأعياد التي يحتفل بها الأرمن في المهجر هي:

" عيد الميلاد" في ٦ يناير من كل عام ، و"ذكرى الإبادة الجماعية للأرمن" في ٢٤ أبريل ١٩١٥ م ، و"استقلال أرمينيا الأول" في ٢٨ مايو من عام ١٩١٨ ، و"معركة أفارايز" ضد بلاد فارس في ٢ يونية ٤٥١ قبل الميلاد ، و"اختراع الأبجدية الأرمنية" عام ٤٠٥ قبل الميلاد ، و"استقلال أرمينيا الثاني" في ٢١ سبتمبر ١٩٩١م من كل عام ، و"عيد الفصح المقدس" في أبريل من كل عام.

ماذا عن الأنشطة الثقافية والفنية للأرمن فى أستراليا؟

تُمارس الأنشطة الثقافية والفنية في "مدارس الأحد" و"الفرق المسرحية" و" الفرق الرياضية " و"جمعيات الشباب" وغيرها من المؤسسات داخل المجتمع بجانب الكنائس، ويعمل " الفرع الأسترالي للاتحاد الثقافي الوطني" منذ عام ١٩٦٤، ويهدف إلى تثقيف الشباب الأرمني وتقريبهم من الثقافة الأرمنية، ويرعى "المدارس الأرمنية " و"مدارس الأحد"، وفرقة مسرحية "هاكوب بارونييان" وجوقة " كوميتاس" وفرق رقص "ساسان" و "نايري ."

وكذا أنشطة فروع "شانت" و"نايري" و"سيفان" و"كوميتاس" النقابية واللجان الأدبية والرياضية في مدينتي (سيدني) و(ميلبورن)، وهناك أنشطة الفرع الأسترالي للاتحاد العام الأرمني للتربية البدنية الذي تأسس في عام ١٩٦٥، ومن خلال القيام بالأنشطة الرياضية والكشفية جمع فيها بين الشبابين الأرمني والشباب الأسترالي من حوله، و أنشطة فروع النقابة (" أراكس"، "أندرانيك"، "ناڤاسارد"، "كامك"، "أرارات") في سيدني وملبورن.

وتوجد "الجمعية التاريخية للأرمن الأستراليين " التي تأسست عام ١٩٧٥، وتقوم بتنظم المحاضرات والمعارض عن التاريخ والثقافة الأرمنية.

تأسس فرع سيدني لاتحاد "تكيان الثقافي" في عام ١٩٨٤م بمبادرة من " نوبار بيربريان "، ومنذ عام ١٩٩٠م أطلق عليه اتحاد "فاهان تكيان الثقافي الأرمني"، ويهدف إلي تنشئة الشباب الأرمني، وتنمية الروابط الثقافية بين المغتربين والوطن. وبفضل جهود الاتحاد قام العديد الفنانين الأستراليين الأصليين بالكثير من الأنشطة الفنية.

يوجد في فرع "سيدني للاتحاد الرياضي الأرمني"(ANCA) فرق كرة القدم وكرة السلة التي تشارك بانتظام في بطولات الاتحاد المحلي.، وينظم فريق كرة القدم أيضًا مباريات ودية مع فرق من اتحادات رياضية أرمنية أخرى

تصدر الجالية الأرمنية ٦ دوريات أرمنية ("أرمينيا " في سيدني، " غارون "، " زانغ "، " لويس "، " ميوتيون " في سيدني، " هويز " في ملبورن). وهناك فرق مسرحية، وجوقات، وبرامج إذاعية أرمنية ("صوت الجيل الجديد" "إيريبوني").

ما المشكلات التي تواجه الأرمن في أستراليا...؟

في بداية الهجرة تمثلت في اللغة واختلاف الثقافة والعادات والتقاليد، لكن تلاشت تدريجيًا بعد الاندماج والانخراط في المجتمع الأسترالي.

هل اندمج الأرمن مع المجتمع الأسترالي أم يشعرون بالغربة...؟

تُعد الجالية الأرمنية في أستراليا واحدة من أكثر المجتمعات الأرمنية نشاطًا في الشتات ويمكن أن تكون مثالًا رائعًا للتعايش المنظم للمجتمعات الأرمنية في البلدان الأخرى.

هل حافظ الأرمن على هويتهم وتراثهم في أستراليا...؟

إن الأرمن يحرصون على التمسك بهويتهم ولغتهم، بالرغم من توزعهم وانتشارهم في كل أنحاء العالم.

هل يتواصل أرمن أستراليا مع أرمن الشتات في البلدان الأخرى...؟

نعم هناك تواصل دائم مع أرمن الشتات من خلال دور الجمعيات والمنظمات الأرمنية التي تتفاعل مع الأحداث والفاعليات التي يقوم بها الأرمن في جميع أنحاء العالم، وتمثل في التواصل مع الجالية الأرمنية في لبنان حيث تعتبر شريحة أساسية من نسيج المجتمع اللبناني، فهي" طائفة من طوائف لبنان السبع"، والعراق وسوريا ومصر والولايات المتحدة وأوروبا وأمريكا اللاتينية.

وفي فبراير ٢٠٢٣، قام العمدة الأرمني الأسترالي، المستشار "سركيس يديليان"،التبرع بمبلغ ١٠,٠٠٠ دولار لضحايا الزلزال في سوريا.

ما الدور الذي يقوم به الأرمن في أستراليا للتعريف بالقضية الأرمنية...؟

قامت الجالية الأرمنية في أستراليا بالضغط من أجل اعتراف أستراليا بالإبادة الجماعية للأرمن، وأقر برلمان ولاية "نيو ساوث ويلز" اقتراحًا بشأن إدانة الإبادة الجماعية في عام ١٩٩٧ وقرر برلمان "نيو ساوث ويلز" أيضًا إنشاء النصب التذكاري للإبادة الجماعية للأرمن في ٢٩ أبريل ١٩٩٨م، وافتتح هذا النصب التذكاري في ٥ مارس ١٩٩٩م.

وحدثت اتصالات بين أعضاء البرلمان الأرمنى والأسترالي، وفي أغسطس ٢٠٠١ تم تشكيل مجموعة الصداقة البرلمانية بين أرمينيا وأستراليا.

وكذا يعمل الفرع الأسترالي للجنة "دات" الأرمنية في سيدني منذ السبعينيات، وينظم الخطب السياسية والاجتماعات مع شخصيات الدولة الشهيرة، ومن بين المبادرات الجديرة بالذكر مناقشة مسألة الاعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن في برلمان ولاية "نيو ساوث ويلز" وإقامة نصب تذكاري لذكرى ضحايا الإبادة الجماعية في مبنى البرلمان.

هل من الممكن نسيان الماضي و المصالحة مع الأتراك...؟ وهل يمكن نسيان الماضي التركي..؟

الأرمن من جهتهم يبدون استعداداً للمصالحة أكثر من مرة شرط اعتراف تركيا الرسمي بالمجزرة، والاعتذار للشعب الأرمني والتعويض عن مأساته معنوياً ومادياً، فالأرمن لا يعادون الشعب التركي والمشكلة مع السلطة التركية رغم عدم مسؤوليتها مباشرة عن المجزرة. أما تركيا فلا تستطيع التصالح مع ماضيها ومع الشعب الأرمني المجاور إلا بالبدء بالتخلي عن إنكارها الكاذب، ولقد دعا أردوغان الأرمن للحوار ولفتح الملفات والوثائق القديمة في أرشيف الحكومة، لكن هذه الدعوة لن تؤدي لنتائج إذا كانت مُخططة مسبقاً لإظهار أن التفسير الرسمي للمجزرة هو الحقيقة الوحيدة.

لماذا نجد النشاط أو الحركة في مطالبة تركيا الاعتراف بالإبادة الأرمنية أكثر من الأرمن في أرمينيا...؟

لأن أرمن الشتات ورثوا عن أجدادهم ذكريات آلام ومآسي الإبادة، وقد أثبت إصرارًا عنيداً بعدم التخلي عن حقوقه، وفي كل مكان تتواجد فيه جالية أرمنية عملت بنجاح لدفع دول ومؤسسات للاعتراف بالمجزرة، ومنها العدد الأكبر من الدول الأوروبية والبرلمان الأوروبي ودول أخرى.

هل يلعب الأرمن الأستراليون دورًا كبيرًا في تدعيم العلاقات الأسترالية الأرمنية.. وما أبرز مظاهر هذا التعاون في مختلف المجالات..؟

حاول الأرمن في جميع الولايات ربط الأرمن بأرمينيا التي اعتبرها الأرمن وطناً، ومع ذلك خلال الحرب الباردة، كان اتصال الشتات بأرمينيا محدودًا في أستراليا، ودعت الكنيسة بعض المجموعات الأرمنية إلى حفلات موسيقية. وتمكن عدد من الأرمن من زيارة أرمينيا عبر لبنان، وتم إنشاء لجنة العلاقات الثقافية مع الأرمن في الخارج في أرمينيا، وتتواصل مع الأرمن في أستراليا.

وتُصدر، هذه اللجنة صحيفة أسبوعية ترسل إلى العديد من الأرمن في الخارج بالمجان، وأرسلت اللجنة وفودًا أرمنية إلى أستراليا ودعت قادة مجتمعات الشتات إلى أرمينيا،

وترسـل المنظمات الأرمنية في أسـتراليا مثل"AGBU" والجمعية الثقافية الأرمنية المعلمين والطلاب إلى أرمينيا كل عام، كما أرسلت الجالية الأرمنية في أستراليا مساعدات إلى أرمينيا بعد الزلزال، حتى استقلال أرمينيا.

كيف ساعد استقلال أرمينيا على تواصل أرمن أستراليا مع وطنهم الأم...؟

فتح استقلال أرمينيا فرصة جديدة للشتات لتوسيع اتصالاته مع الوطن الأم، وبالنسبة للعديد من أرمن الشتات، كانت أرمينيا دولة بعيدة لا يعرفون الكثير عنها، وعندما أصبحت أرمينيا مستقلة رحبت منظمات الشتات والأحزاب السياسية الاستقلال ودعمته.

كيف تطورت العلاقة بين أرمن أسـتراليا والوطن الأم بعد الاستقلال...؟

تطورت العلاقات بين أرمينيا والشـتات بسـرعة، على عكس ما حدث خلال الحرب الباردة، قامت منظمات الشتات والسياسيون ورجال الأعمال بزيارة أرمينيا بشكل متكرر، و لقد واجهوا أرمينيا الحقيقية وشـعبها بدلاً من تصورهم لأرمينيا.

أدرك أرمن الشتات أن أرمينيا لم تكن تاريخًا أو متحفًا وأن أناسًا حقيقيين يعيشـون في أرمينيا حيث توجد مشـاكل حقيقية مثل البطالة والتضخم والفقر، وأرسلت منظمات الشـتات الكثير من المساعدة لأرمينيا وسـارعت أحزاب الشتات في فتح فروعها في أرمينيا.

ويمكن القول إن الشـتات يُسـاهم بشـكل إيجابي فى أرمينيا وأصبح عاملاً مهمًا في علاقات أرمينيا مع البلدان التي يعيش فيها الأرمن في الشتات، على الرغم من أن الجالية الأرمنية في أسـتراليا ليسـت فعالة مثل الأرمن في الشـتات في الولايات المتحدة وكندا وفرنسـا وبريطانيا، إلا أنهم ما زالوا يلعبون دورًا في علاقات أسـتراليا مع أرمينيا، واعترفت أسـتراليا بأرمينيا في ٢٦ ديسـمبر ١٩٩١، وأقامت علاقات دبلوماسـية في ١٥ يناير ١٩٩٢.

رغم اعتراف الكنيسـة الموحدة ومناطق متفرقة بالإبادة الأرمنية.. فلماذا لم نشـهد اعترافاً موحداً بالإبادة من قبل الحكومة الاسترالية..؟

إن اعتراف أستراليا بالإبادة الأرمنية مسألة وقت، وإن الموافقة بالإجماع على اقتراح من مجلس النواب الأسـترالي يـدعو الحكومة الفيدرالية إلى الاعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن هو "إنجاز مهم" ويدعو الاقتراح الحكومة الأسـترالية إلى الاعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن والآشوريين واليونانيين، ويضغط البرلمان الاسترالي بصفة مستمرة على الحكومة الأسـترالية، ومن المتوقع أن تسـتمع الحكومة إلى البرلمان، فقد رأينا هذا في الولايات المتحدة، وعندما يكون هناك ضـغط من البرلمان فإن اعتراف الحكومة بالإبادة الجماعية للأرمن عام ١٩١٥ هو مسـألة وقت، ولذا فإن الأرمن سـيواصـلون العمل بنشـاط في جميع الاتجاهات للضـغط على الحكومة الأسترالية.

ففي ٢٩ نوفمبر ٢٠٢١، ناقش مجلس النواب في البرلمان الفيـدرالي بالإجماع اقتراحاً مقدمًا من النائب " ترينت زيمرمان"، وأيَّد الاقتراح أعضـاء المعارضـة "جوش بيرنز" و"سـتيف چورچـاناس" و"جويـل فيتزچيبون"، ودعـا الحكومة الأسترالية إلى الاعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن والآشوريين واليونانيين.

هـل يهتم الأرمن بمـا يحـدث في ناجونور كـاراباخ (ارتساخ).. وما مظاهر هذا الاهتمام...؟

بسـبب الجهود الأرمنية ومسـاعي لجنة "دات" الأسـترالية الأرمنية تشكلت مجموعة "أصدقاء أرتساخ الأسترالية" في عـام ٢٠١٩، وذلك للدفاع عن الأرمن الأصـليين في جمهورية" أرتسـاخ "وعند تشـكيلها ضـمت حوالي ٤٠ عضوًا، ويتجاوز هذا العدد حاليًا ٧٠ عضوًا.

وتحت قيادة السناتورين الفيدراليين "أندرو براج" و"چانيت رايس"، انضـم ١٦ شـخصـية بارزة إلى المجموعة المتزايدة باسـتمرار من أصـدقاء" أرتسـاخ الأسـتراليين" لدعم حق تقرير المصير لجمهورية" أرتساخ الأرمنية".

واستضافت لجنة "دات" الأسترالية والممثل الدائم لجمهورية " أرتسـاخ" في أسـتراليا وفد جمهورية "أرتسـاخ "، بقيادة وزيرالخارجية آنذاك "ماسـيس مايليان" ووزير" أرتسـاخ" النائب "دافيت إشخانيان ."

وفي عام ٢٠٢٠ أقر برلمان جنوب أستراليا بالحق في تقرير المصـير لجمهورية "أرتسـاخ" أثناء الحرب، وكذلك رحب "هـايك كيسـريان " المدير التنفيذي للجنة " دات " الأسـترالية الأرمنية، بإضـافة المجموعة، مؤكدًا أن الجالية الأرمنية الأسترالية لن تتخلى أبدًا عن حماية حقوق شعب جمهورية "أرتسـاخ" البطل، و نتيجة لجهود اللجنة الأرمنية "دات" ، قام السياسيون الذين انضموا مؤخرًا إلى مجموعة "أصـدقاء آرتسـاخ" الأسـتراليين من خلال المناصـب السياسية المختلفة الدفاع عن مصالح شعب أرتساخ.

مجلس النواب المصري (١٨٦٦ - ١٩٢٤م)
من التأسيس إلى إجراء أول انتخابات برلمانية



بقلم: د. ملاك نجدى أبوضابة

بعد حل المجلس العالى فى عام ١٨٣٧م ظلت مصر حتى عام ١٨٦٦م بدون مجلس نيابي حقيقي، وتولى المجلس الخصوصي الذى صدر قرار إنشاؤه عام ١٨٤٧م مهمة سن القوانين واللوائح حيث أصدر فى ٢٢ أكتوبر١٨٦٦م اللائحة التأسيسية لمجلس شورى النواب ولائحته الداخلية، ونعرض فى السطور الآتية للملامح الأساسية لمجلس شورى النواب من حيث نشأته وتكوينه وشروط العضوية والهيئة الناخبة، ودورات انعقاد المجلس (هيئاته النيابية الثلاث) التى استمرت ثلاثة عشر عامًا (١٨٦٦- ١٨٧٩م)، كما نتوقف عند مجموعة من التقاليد البرلمانية والتى لا يزال معظمها معمولاً به فى الوقت الراهن .

أنشئ مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦م فى عهد الخديوي اسماعيل (١٨ يناير ١٨٦٣ - ٢٦ يونيو ١٨٧٩م) الذى وضع أسس هذا النظام فى لائحتين عرفت الأولى باللائحة الأساسية وهى مؤلفة من ثماني عشرة مادة مشتملة على بيان سلطته وطريقة انتخابه وموعد اجتماعه، وسميت الثانية اللائحة النظامية وتتألف من ٦١ مادة ومن أحكام اللائحتين يمكن تحديد الملامح الأساسية للمجلس فى الجوانب الآتية: تألف المجلس من ٧٥ عضوًا، يُنتخبون لمدة ثلاث سنوات ، ويتولى انتخابهم عمد البلاد، ومشايخها فى المديريات . وتولى الأعيان الانتخاب فى القاهرة، والإسكندرية، ودمياط. وتحدد عدد نواب كل مديرية بحسب عدد السكان، فينتخب



واحد أو اثنان عن كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره، وينتخب ثلاثة نواب عن القاهرة، واثنان عن الاسكندرية، وواحد عن دمياط. وكان عدد سكان مصر وقتئذ ٥٠٣٦٠٠٠ نسمة بواقع نائب لكل ٦٦ ألفاً.

وكان يشترط فيمن ينتخب عضواً أن يكون مصرياً، ومن المتصفين " بالرشد والكمال " ولا يقل سنه عن خمس وعشرين سنة، وألا يكون ممن صدرت ضدهم أحكام جنائية بالسجن أومن المحكوم عليهم بالإفلاس، أو الطرد من وظائف الحكومة بحكم ، واشترط فى العضو العلم بالقراءة والكتابة فى الانتخاب السابع ، أى بعد مضى ثماني عشرة سنة على تأسيس هذا النظام ، لأن مدة كل

مجلس ثلاث سنوات، ومعنى ذلك أن النواب كانوا يعفون من هذا الشرط فى الانتخابات الستة الأولى، ولوحظ فى هذا التميز أن هذه المدة تكفي لانتشار التعليم فى البلاد بحيث يشترط فى الأعضاء بعد انقضائها أن تكون لهم دراية بالقراءة والكتابة، واشترط فى الناخبين أن يكون لهم إلمام بالقراءة والكتابة في الانتخاب الحادي عشر، أى بعد انقضاء ثلاثين سنة على الانتخاب الأول.

كانت عملية انتخاب نواب كل مديرية تجرى فى عاصمتها، وكل ناخب ينتخب العضو النائب عن قسمه، ويناط فرز أوراق الانتخاب بلجنة مؤلفة من المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى (رئيس النيابة اليوم)، وقاضى المديرية . وكان العمد والأعيان فقط هم ممثلي الشعب في البرلمان و شكل العمد أغلبية فى المجالس المنتخبة أعوام: ١٨٦٦م، ١٨٧٠م، ١٨٧٦م: ٥٧ عمدة فى مجلس ١٨٦٦م، و ٦٣ عمدة فى مجلس ١٨٧٠م ، و٦٠ عمدة في مجلس ١٨٧٦م ، وباقي الأعضاء من الأعيان.

ويعزى ذلك بالطبع إلى أن حق الانتخاب فى المديريات كان قاصرا على العمد والمشايخ طبقا لما تنص عليه اللائحة الأساسية (قانون الانتخاب) ، أما فى القاهرة والإسكندرية ودمياط ، وكان يطلق عليها دوائر المدائن ، فحق الانتخاب - كان حكرًا على الأعيان.

وكان المجلس يجتمع شهرين فى كل سنة، من منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير، أما المجلس الأول، فيجتمع من منتصف نوفمبر حتى منتصف يناير، ويكون اجتماعه فى القاهرة وجلساته سرية وللخديوي جمع المجلس أو تأخيره أو إطالة مدة اجتماعه أو تبديل أعضائه (حله) وإجراء انتخابات جديدة (مادة ١٦ و١٧ من اللائحة الأساسية).

وكان تعيين رئيس مجلس شورى النواب ووكيله منوطاً بالخديوي دون أن يكون للمجلس رأى أو ترشيح فى هذا التعيين (مادة ٣ من اللائحة النظامية).

وكان هناك عقوبات على من يتخلف من الأعضاء دون عذر عن حضور جلسات المجلس (مادة ١٢ من اللائحة النظامية)؛ ومن ثم كانت نسبة الحضور عالية ، وللدلالة على حيوية المجلس ونشاطه وندرة الغياب فيه أن أحد الأعضاء أرسل يعتذر عن الحضور لمرضه، فما كان من أحد النواب إلا أن طلب توجيه رسالة للمديرية التابع لها العضو الذي يعتذر بالمرض للكشف عليه طبياً بمعرفة حكيمباشى المديرية، فوافق المجلس على هذا الرأي.

وقد استمر مجلس شورى النواب ثلاث دورات أو هيئات (١٨٦٦- ١٨٧٩م)، وفي هذه الهيئات النيابية الثلاث كان المجلس ينعقد انعقاداً عادياً ولم يكن هناك اجتماع غير عادي سوى الذي عقد خلال شهر أغسطس ١٨٧٦م ، وكان عدد أعضاء المجلس في هذه الفترة خمسة وسبعين عضواً منتخبين وواحد فقط هو المعين .

١ -الهيئة النيابية الأولى (١٨٦٦- ١٨٦٩م) :

بدأ المجلس أعماله في يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦م برئاسة إسماعيل راغب باشا، واختتم جلسات دور انعقاده الأول في يوم الأربعاء الموافق ٢٤ يناير ١٨٦٧م. وبدأ المجلس دور انعقاده الثانى في يوم الاثنين الموافق ٢٨ يناير ١٨٦٨م برئاسة عبدالله عزت باشا ، واختتم جلساته في يوم السبت الموافق ٢٣ مايو ١٨٦٨م. وبدأ المجلس دور انعقاده الثالث فى يوم الخميس الموافق ٢٨ يناير ١٨٦٩ م. برئاسة عبدالله عزت باشا ، واختتم جلساته في يوم الاثنين الموافق ٢٢ مارس ١٨٦٩م.

٢ -الهيئة النيابية الثانية (١٨٧٠-١٨٧٣م):

بدأ المجلس أعمال هيئته الثانية (دور الانعقاد العادي الأول) في يوم الثلاثاء الموافق أول فبراير ١٨٧٠م برئاسة عبد الله عزت باشا، واختتم جلساته يوم الخميس الموافق ٣١ مارس ١٨٧٠م . وبدأ المجلس دور انعقاده الثانى في يوم السبت الموافق ١٠ يونية ١٨٧١م برئاسة السيد أبو بكر راتب باشا، واختتم جلساته يوم الأحد الموافق ٩ أغسطس ١٨٧١م.

وبدأ السنة الثالثة من دور الانعقاد الثانى فى يوم الأحد الموافق ٢٦ يناير ١٨٧٣م برئاسة السيد أبو بكر راتب باشا، واختتمت الجلسات في يوم الاثنين الموافق ٢٤ مارس ١٨٧٣م.

ثم انقضت سنتا ١٨٧٤ و١٨٧٥م دون أن يدعى مجلس شورى النواب للاجتماع، أو تجرى انتخابات جديدة بعد انقضاء مدة الهيئة النيابية الثانية، ويعزى ذلك كما يقول

الرافعي إلى الارتباك المالي الذي وقعت فيه الحكومة، وعدم رغبتها في إشــراك نواب الأمة في آرائها وقراراتها، وتعمدها عدم اطلاعهم على حقائق الحالة المالية.

٣ -الهيئة النيابية الثالثة (١٨٧٦ - ١٨٧٩م)

بدأ المجلس أعمال هيئته الثالثة (دور الانعقاد العادي الأول) في يوم الخميس الموافق ٢٣ نوفمبر ١٨٧٦م برئاسة عبدالله عزت باشــا، واختتم جلســاته يوم الاربعاء الموافق ١٦ مـايو ١٨٧٧م، وبـدأ دور انعقـاده الثـاني في يوم الخميس الموافق ٢٨ مارس ١٨٧٨م برئاســة قاســم رسمي باشا ثم جعفر مظهر باشا ، واختتم جلساته يوم الخميس الموافق ٢٧ يونيه ١٨٧٨م , وبدأ دور الانعقاد العادي الثالث في يوم الخميس الموافق ٢ يناير ١٨٧٩م برئاســة أحمد رشيد باشا ، ثم حسن راسم باشا، واختتم جلساته في يوم الأحد الموافق ١٥ يونيه ١٨٧٩م.

شــهد مجلس شــورى النواب إرســاء العديد من التقاليد البرلمانية، والتي أصــبح معمولاً بها فيما بعد، وبعضــها من التقاليد الراســخة في الحياة البرلمانية الراهنة. وفى مقدمة تلك التقاليد خطبة العرش التي يلقيها الخديوي في حفل افتتاح المجلس والتي كان يحضــرها لفيف من الأمراء وعلية القوم في ذلك الوقت، وبمجرد الانتهاء منها يشكل المجلس لجنة للرد عليها. ومن التقاليد الأخرى الحصـــانة البرلمانية ومبدأ مسـئولية الحكومة أمام البرلمان. وكان السـبب فيها الجهود التي بذلها نائب محلة مرحوم في ذلك الوقت النائب عثمـان الهرميـل. ويفتتح الخـديوي المجلس بخطبـة العرش، ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب لا يقطع فيه بشــئ من الأمـور الـتى يـقـتضــي نـظـرهـا المجـلـس (مادة ٤ و٥ من اللائحة النظامية).

ومن ثم، بدأ المجلس أولى جلســاته يوم الأحد ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦م بمكان انعقاده بالقلعة برئاســة اسماعيل راغب باشــا الذى عُين رئيســاً للمجلس فى دور انعقاده الأول، وحضـر الخديوي حفلة الافتتاح يحيط به أعضـاء حكومته شريف باشـا، ووزير الداخلية ، وحـافظ باشـا وزير المالية ، وعبدالله عزت باشـــا رئيس مجلس الأحكام ، وإسماعيل باشا صديق مفتش الأقاليم ، ورياض باشا المهردار، وأحمد خيرى بك كاتب الخديوي .

وظهر تقليد نيابي آخر أرساه مجلس شورى النواب تمثل في تشـــكيـل لجـان المجلس أو مـا عرف آنـذاك بالأقلام حيثُ ينتخب المجلس من بين أعضـــائه لجاناً تســـمى (أقلامًا) ومن أعمالها فحص صـــحة نيابة الأعضـــاء وتعرض قراراتها على هيئة المجلس ومن يقرر المجلس صـحة انتخابهم تعرض أسماؤهم على الخديوي ليعطي كل واحد منهم " البيرولدى " أى الأمر باعتماد عضــويته. وهذه اللجان هي: لجنة المدائن (العواصم) ، لجنة روضة البحرين (وتشمل نواب الغربية والمنوفية) ، ولجنة الشرقية وتشمل نوابًا من الشــرقية والدقهلية ، ولجنة أســيوط ولجنة المنيا. وللأقلام مهمـة ثانيـة وهى انتخـاب لجـان أخرى من بين أعضائها تسمى (قومسيونات) لبحث المسائل التى يُحيلها عليها المجلس كلما رأى ضـرورة لذلك، وطريقة تأليفها أن يُنتخب كل قلم من الأقلام الخمســة عضــوًا واحدًا من أعضائه ، فتؤلف اللجنة من خمسة أعضاء.

ومن التقاليد البرلمانية الأخرى الحصـانة البرلمانية التي يتمتع بها الأعضـــاء حيث كانت لائحة تأســيس المجلس تنص على ألا ترفع على أعضـــاء المجلس دعوى جنائية أثناء انعقاد المجلس إلا إذا ارتكب العضــو جريمة القتل وضـبط متلبســاً بالجريمة. وهناك تقليد آخر تمثل في عناية لائحة المجلس إلى حد تقرير نوع الملابس التى يرتديها العضــو في المجلس بأن تكون بالحشـــمة اللائقة وطريقة الجلوس بأن تكون بهيئة الأدب (مادة ٤٠).

زد على ذلك أنه لم يكن بإمكان أى عضو نشر مناقشات المجلس أو طبعها إلا بإذن من الرئيس وإلا كان عرضـــه للجزاء الذي يوقعه به المجلس (مادة ٥٤). ومن خصائص النظام البرلماني أن الحكومة تكون مســؤولة أمام البرلمان، وتقرر مبدأ المسـؤولية الوزارية في مصـر لأول مرة في مصـر ســنة ١٨٧٩م في عصــر إسماعيل. ومن ثم كانت وزارة شريف باشـا التي شكلت فى ٧ إبريل ١٨٧٦م أول وزارة تسأل أمام البرلمان.

ويرتبط بما سبق، ما أشار إليه عضو المجلس عثمان الهرميل في اجتماع مجلس شورى النواب في مدينة طنطا (أغسطس ١٨٧٦م) حيث ذكر أن المجلس " لم ينظر ميزانية الحكومة

(أغسطس ١٨٧٦م) حيث ذكر أن المجلس " لم ينظر ميزانية الحكومة في السنة الماضية مع أن له الحق في الاطلاع عليها ليعرف كيفية الإيرادات والمصروفات، ويعلم أيضاً كيفية الاستقراض، وحصر دين مصر ، وتسديده خلال ٦٥ سنة طبقاً لمرسوم توحيد الديون ، فإن وافق المجلس تطلب هذه البيانات أيضاً لتنظر بالمجلس."

على وجه الإجمال فإن مجلس شورى النواب الذى انعقد لمدة ثلاثة عشر عاماً يشكل البداية الحقيقية للنظام البرلماني المصرى ، وهو الذى أرسى من خلال القواعد القانونية والممارسة العملية حزمة من التقاليد البرلمانية الراسخة وفى مقدمتها خطبة العرش والرد عليها (والتى يُقابلها فى الوقت الراهن بيان الحكومة والرد عليه) إلى جانب مبدأ المسؤولية الوزارية وكانت الإرهاصات الأولى لتطبيق هذا المبدأ فى أواخر عهد المجلس عام ١٨٧٦م. ويلاحظ أن شرط العلم بالقراءة والكتابة كأساس لاكتساب عضوية المجلس وقتئذ لم يطبق عمليًا حيث انفض المجلس بعد ثلاث عشرة سنة، فيما نصت اللائحة على تطبيق هذا الشرط بعد مضى ثماني عشرة سنة على تأسيس هذا النظام لإتاحة الفرصة لنشر التعليم بالبلاد . كما التأم المجلس فى أدوار انعقاد عادية ماعدا جلسة واحدة استثنائية عقدت بمدينة طنطا تزامنًا مع الاحتفال بمولد السيد البدوي. وتعطلت الحياة النيابية عامي ١٨٧٤ و١٨٧٥م لتعمد الحكومة عدم اطلاع نواب الأمة على حقائق الحالة المالية للبلاد .

وقد أخذت اللجنة الدستورية التى شكلها مجلس النواب تراجع نصوص الدستور، ولائحة الانتخاب الجديدة المرفقة به، ولكن تآمر الدول الأوروبية على الخديوي إسماعيل، ونجاحهم فى إقناع السلطان العثمانى بعزله، وتولية ابنه توفيق خلفاً له فى شهر يونيو ١٨٧٩م- بسبب تحديه لهم وتجاوبه مع مطلب الدستور- حال دون إكمال اللجنة لعملها-، وصدور المرسوم الخديوي بإعلان الدستور، حيث قررت الحكومة فض المجلس بعد عزل إسماعيل. وكانت تلك آخر جلسة عقدها قبل أن تتعطل الحياة النيابية فى أوائل عهد توفيق لنحو سنتين، لتنتهي بذلك قصة أول مجلس نيابي وأول دستور فى تاريخ مصر مؤقتًا.

ثم انتقلت قيادة الحركة الوطنية فى عهد توفيق من النخبة المدنية التى مثلها مجلس شورى النواب إلى النخبة العسكرية التى مثلها أحمد عرابي وزملائه، وقد بدأت حركة الضباط فئوية تهدف إلى تحقيق المساواة بين الضباط المصريين والضباط الشراكسة، وذلك فى ظل انحياز ناظر الحربية عثمان رفقي الشركسي فى نظارة رياض باشا – التى أعقبت شريف – للضباط الشراكسة والأتراك على حساب الضباط المصريين، وقد نجحت حركة الضباط فى عزل عثمان رفقي عن نظارة الحربية وتحقيق معظم مطالبها، وتعيين واحد منهم هو محمود سامى البارودي بدلاً منه، وذلك بعد واقعة قصر النيل فى فبراير ١٨٨١م، ثم طورت حركة الضباط مطالبها بتبني مطالب الأمة فى إعادة مجلس شورى النواب وإقرار دستور شريف باشا، الذى تعطل إقراره سنة ١٨٧٩م بسبب عزل الخديوي إسماعيل، وذلك على أثر واقعة قصر عابدين الشهيرة، التى واجه فيها عرابي ومعه وحدات الجيش المرابطة بالقاهرة الخديوي توفيق فى سبتمبر من نفس السنة ١٨٨١م، والتى اضطر على أثرها توفيق لعزل رياض باشا عن الوزارة، وتكليف شريف باشا بتكوين الوزارة للمرة الثانية – بعد استقالته الأولى بسبب تراجع توفيق عن وعده بدعم مطلب الحكم الدستوري –، والاستجابة لمطلب إعادة انتخاب مجلس شورى النواب، والانتهاء من مشروع الدستور، والذى تم إقراره والموافقة عليه فعلاً فى فبراير ١٨٨٢م، وذلك فى سابقة فريدة من نوعها.

لكن مشاكل العرابيين لم تنته مع الخديوي بعد ذلك، خاصة بعد أن أصبحوا الحكام الفعليين للبلاد من خلال رئاسة محمود سامي البارودي للنظارة وتولى عرابي لنظارة الحربية، بعد استقالة شريف باشا صاحب الدستور – للمرة الثانية – احتجاجاً على تعسف الضباط، وتدخلهم فى شئون الحكم، واستهتارهم بتهديدات إنجلترا وفرنسا بالتدخل حفاظاً على سلطة الخديوي، وعلى مصالح الدائنين الأجانب، وقد وصلت الأزمة بين الخديوي والضباط ذروتها فيما أصبح يعرف فى التاريخ المصرى

باسم مؤامرة الضباط الشراكسة التى وقعت فى أبريل ١٨٨٢م، وهم مجموعة من الضباط الشراكسة اتهموا بالتدبير لاغتيال عرابي وزملائه، وتم محاكمتهم أمام محكمة عسكرية حكمت عليهم بأحكام رآها الخديوي قاسية فاستخدم حقه الدستوري وتدخل لتخفيفها، فاعترض الضباط وأصروا على تنفيذ الأحكام كما هى، بينما أصر توفيق على موقفه معتمداً على تأييد إنجلترا وفرنسا اللتان أرسلتا أساطيلهما إلى سواحل الإسكندرية فى مايو ١٨٨٢م، وتبعت ذلك بإنذار فى شكل مذكرة مشتركة طالبت فيها بإسقاط حكومة البارودي وإبعاد عرابي عن مصر، والتى وافق عليها توفيق، مما دفع البارودي إلى تقديم استقالته، ووصم عرابي لتوفيق بالخيانة والتهديد بخلعه، وتهديد كل من تسول له نفسه من أعضاء مجلس النواب بالتعاطف معه، وهو الموقف الذى جعل معظم النواب، والذين ظلوا حلفاء لعرابي وزملائه حتى اللحظات الأخيرة، ينحازون إلى جانب الخديوي ومعهم أعضاء مجلس النظار فى النهاية، وذلك فى الوقت الذى انحاز ت فيه قوات الجيش ومعها قطاع كبير من المدنيين إلى عرابي وزملائه، بحيث انقسمت البلاد إلى طائفتين متصارعتين، وبدأت علامات الفوضى تلوح فى الأفق، وفى تلك الأجواء وقعت مذبحة الإسكندرية التى راح ضحيتها عدد كبير من الأجانب فى يونيو ١٨٨٢م، فأعطى ذلك إنجلترا الفرصة التى كانت تنتظرها لضرب الإسكندرية بالمدافع واحتلالها فى الشهر التالي مباشرة يوليو ١٨٨٢م، ثم مباغتة عرابي — الذى رفض نصيحة أركان حربه بسد القناة اعتماداً على تأكيدات ديليسبس بحماية الاتفاقات الدولية لها — من الجبهة الشرقية وتدمير قواته في التل الكبير، والزحف مباشرة واحتلال القاهرة فى سبتمبر ١٨٨٢م.

لم يُعلن الإنجليز مصر مستعمرة إنجليزية بشكل رسمي، بل على العكس، فقد عبروا عن رغبتهم فى الجلاء عنها بمجرد القضاء على الأسباب التى أدت إلى نشوء حالة الفوضى التى نجمت عن الثورة العرابية، وأرسلوا سفيرهم فى إسطنبول، اللورد دوفرين، لمعالجة هذه الأسباب. بدأ دوفرين بتثبيت سلطة الخديوي وبتصفية الثورة العرابية، كما عمل على إنشاء جيش جديد وبوليس جديد تحت قيادة إنجليزية، وإلغاء المراقبة الثنائية، التى كان توفيق قد أقرها بدلاً من نظام الوزيرين الأوربيين، ووضع الشئون المالية تحت إشراف مستشار مالي إنجليزي. وكذلك قام دوفرين بإلغاء مجلس شورى النواب ودستور شريف باشا، ووضع نظام نيابي جديد لمصر يتكون من مجلسين نيابيين، عرفا باسم مجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية، كان رأيهما استشارياً، أما السلطة الحقيقية فقد انتقلت إلى ممثل إنجلترا فى مصر، وإلى أعوانه من المستشارين الإنجليز الذين عينوا فى الوزارات المختلفة.

وكان مجلس شورى القوانين يتكون من ثلاثين عضواً تعين الحكومة أربعة عشر منهم، وتنتخب مجالس المديريات بقية الأعضاء، وقد عُرف المجلس بشورى القوانين لأن أعضائه لم يكن لهم الحق فى إجازة أى قانون، بل يبدون آراءهم فيما تعرضه الحكومة عليهم من مشروعات، ولها الحق فى أن تقبل رأى المجلس أو ترفضه، كما لم يكن من حق هذا المجلس النظر فى بعض أبواب الميزانية المتعلقة بالإيرادات والنفقات التى حددتها المعاهدات الدولية، أما الجمعية العمومية فتتكون من اثنين وثمانين عضواً، ينتخب الأهالي منهم ستة وأربعين عضواً فقط، والباقون هم النظار الستة وأعضاء مجلس شورى القوانين الثلاثون، وكان من اختصاص هذه الجمعية ألا تفرض ضريبة مقررة جديدة من غير موافقتها، وأما فيما عدا ذلك فقد كان رأيها استشارياً خالصاً، كرأي مجلس شورى القوانين.

وبعد أن هدأت الحركة الوطنية فى بقية عهد توفيق الذي استسلم تماماً لرغبات سلطات الاحتلال، لكنها استؤنفت فى عهد خلفه عباس الثانى(١٨٩٢-١٩١٤م)، الذي ناوئ السلطات البريطانية وانحاز للحركة الوطنية المطالبة بالدستور والاستقلال فى ظل الدولة العثمانية، والتى تزعمها الزعيم الشاب مصطفى كامل، ولكن انتهى الأمر بعزله عن الحكم ومصادرة أملاكه مع قيام الحرب العالمية الثانية بسبب ميوله التركية.

وفى عهد عباس نشأ الحزبان السياسيان الرئيسيان في تاريخ مصر الحديث، وهما حزب الأمة سنة ١٩٠٧م، والذي خرج منه حزب الوفد مع قيام ثورة ١٩١٩م،

والحزب الوطنى الذى أسسه الزعيم الشاب مصطفى كامل فى نفس سنة ١٩٠٧م. كان الحزبان فى الواقع امتداداً متمايزاً لتيار الحزب الوطنى الجامع الذى كان قد نشأ قبيل الثورة العرابية، والذى آلت رئاسته إلى عرابي فى ذلك الوقت، ففى حزب الأمة تمثل التيار القومى الليبرالي، الذى مثله الشيخ محمد عبده وتلاميذه، سعد زغلول وأحمد لطفى السيد وغيرهم، والذى زرع رفاعة الطهطاوي بذوره الفكرية منذ وقت مبكر، بينما مثل الحزب الوطنى تيار الجامعة الإسلامية، الذى بشر بها جمال الدين الأفغاني، وأصبح مصطفى كامل بميوله الإسلامية العثمانية من أشد الداعين إليه. وقد قُدر للتيار القومى الليبرالي، الذي مثله حزب الأمة وحزب الوفد بعده، أن يكون هو الفائز بقيادة مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين، بينما قدر للحزب الوطنى ذو الميول الإسلامية، أن يظل مجرد حزب معارض حتى إلغاء الأحزاب السياسية مع قيام ثورة ١٩٥٢م.

وفى سنة ١٩١٣م عُين كيتشنر قائد الجيش المصرى السابق معتمداً لإنجلترا فى مصر، فأراد تغيير النظام النيابي المزدوج بنظام موحد منتخب مكون من ٦٦ عضوًا، عُرف باسم الجمعية التشريعية، وكان فى هذه الجمعية أن برزت زعامة سعد زغلول التاريخية للأمة المصرية فى كفاحها من أجل الاستقلال والدستور. رشح سعد زغلول نفسه عن دائرتي بولاق والخليفة وفاز فى كليهما، وهكذا أصبح عضواً بالجمعية التشريعية.

وقد كان للجمعية التشريعية رئيس ووكيلان، وكانت الحكومة تعين الرئيس وأحد الوكيلين، بينما كان الوكيل الثانى يأتي عن طريق الانتخاب، وقد رشح سعد زغلول نفسه لهذا المنصب وفاز به، فأصبح بذلك الممثل الشرعي المنتخب للأمة المصرية. وفى الجمعية التشريعية برزت قوة شخصية سعد زغلول ومواهبه الخطابية النادرة فاعترف به زملائه زعيماً لا ينازع.

لم تستمر الجمعية التشريعية لأكثر من دور الانعقاد الأول، فقد قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، وفرضت بريطانيا الأحكام العرفية، وعطلت أعمالها وأعلنت الحماية على مصر، وعزلت عباس الثانى وولت بدلاً منه السلطان حسين كامل، الذي توفى قبل نهاية الحرب سنة ١٩١٧م، وخلفه السلطان فؤاد. استجاب سعد زغلول وزملاؤه لظروف الحرب ولم يبد منهم أى مقاومة لسياسة إنجلترا فى مصر، لكن وبمجرد أن وضعت الحرب أوزارها وتم عقد الصلح بين المتحاربين فى نوفمبر سنة ١٩١٨م، توجه سعد مع زميليه على شعراوي وعبدالعزيز فهمى إلى دار المندوب السامي البريطانى وقتئذ، السير ريجينالد وينجت ليطالبوا بالسماح لهم بالسفر إلى مؤتمر الصلح فى فرنسا، لعرض القضية المصرية على القوى الكبرى ، إلا أن الرفض ونفى زعماء الأمة أشعل ثورة ١٩١٩م في أنحاء القطر المصري، على خلفية ممارسات السلطات البريطانية ضد الحركة الوطنية فى مارس ١٩١٩م .

كانت ثورة ١٩١٩م تعبيراً عن تطور نحو الفكرة القومية، نمو الفكرة القومية الليبرالية المصرية، وتتويجاً لعصر الاستنارة الطويل، الذى شهدته مصر طوال القرن التاسع عشر، وبعكس الفكرة الشائعة، بأن الاستقلال الذى تحقق شكلياً بموجب تصريح فبراير ١٩٢٢م، كان هو مطلبها ومنجزها الأساسي، فالواقع أن دستور ١٩٢٣م الليبرالي، الذى تم إقراره فى أبريل ١٩٢٣م ، و بروز مصر من خلاله كدولة قومية ليبرالية – وهو ما فشلت فيه الثورة العرابية – وتكللت الجهود بإقرار دستور ١٩٢٣م فى ١٧٠مادة أسست على أحدث المبادئ الدستورية لذلك العصر، وبإقرار دستور ١٩٢٣م وعودة سعد زغلول من منفاه الثانى فى سبتمبر من نفس السنة، أصبحت البلاد فى حالة من الهدوء والاستقرار، وتهيأت الظروف لإجراء أول انتخابات برلمانية فى تاريخ مصر فى يناير سنة ١٩٢٤م، والتى نال فيها الوفد نحو 90% من مقاعد مجلس النواب، بينما سقط رئيس الوزراء يحي إبراهيم باشا، الذى أشرف على الانتخابات، وذلك فى دائرته الانتخابية (منيا القمح) أمام مرشح من حزب الوفد، فكان سقوطه شهادة ناطقة على نزاهته الشخصية، كما كان شهادة على نزاهة عصر جديد كان على وشك أن يبدأ.



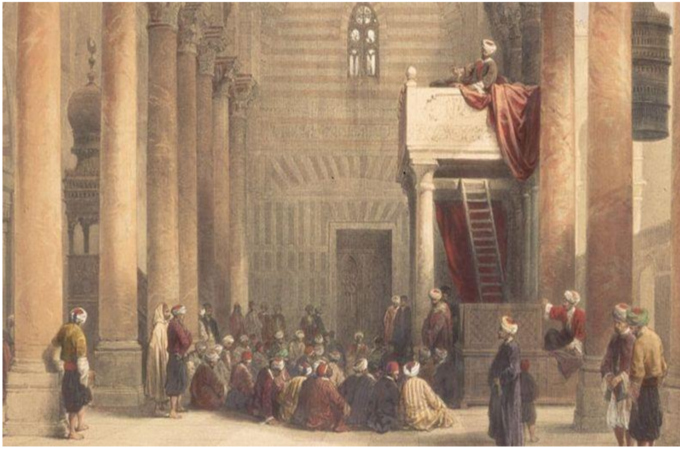
من احتفالات رؤية الهلال وموائد الرحمن إلي ليلة القدر عادات واحتفالات المصريين بشهر رمضان في كتابات الرحالة والمستشرقين

بقلم: هدير مسعد

حين تنظر في ليالي رمضان وسهراتها تجد مرحاً وسعادة وروحانية دينية عالية لأن شهر رمضان له بريق بلغ الأنظار وروح تتعلق بالأبصار، هذا ما رآه الرحالة والمستشرقون حينما وفدوا إلى القاهرة في رمضان، فسجلوا بأروع ما يكون الحياة اليومية في مصر المحروسة من خلال المجتمعات الشرقية وما تحويه من عالم غريب حافل بالأحداث المثيرة. وحرص بعض من هؤلاء الرحالة على استئجار غرفة في أي شارع رئيسي ليتمكنوا من متابعة الاحتفال بهذا الشهر. وقد مكن الرحّالة والمستشرقون الذين زاروا مصر منذ العصور الوسطى في رصد وتصوير اختلاف حياة عامة الناس في هذا الشهر تحديدًا، وأعربوا عن دهشتهم من بزوغ عادات وطبائع بعينها خلال هذه الفترة دون غيرها، تولد بفرح مع استطلاع هلاله وتختفي بحزن مع قرب انتهائه، فجاءت كتاباتهم حافلة بشهادات ورؤى حفظت لنا صورة تاريخية نابضة بالحياة حتى وقتنا هذا، غلبت عليها الدقة وطرافة الوصف في ذات الوقت.

ويتربع على القمة بين الرحالة المستشرقين البندقي "برنارد بريدنباخ" الذي شهد في منتصف القرن الخامس عشر مظاهر بهجة الناس بهذا الشهر من خلال إنارة المساجد والدروب حتى أنه اندهش لكثرة ما رآه من فوانيس مختلفة الألوان والأشكال يحملها الكبار والصغار وكتب يقول:

"يوقد في ليالي رمضان والأعياد أكثر من سبعمائة قنديل ويفرش بالمساجد عشر طبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض ودق الدفوف".



كما كان من أقدم الرحّالة الذين زاروا مصر ورصدوا مظاهر شهر رمضان فيها هو الأب "فليكس ڤابري" الذي قدم إلى مصر في رحلة عام ١٤٨٣ وقدم شهادة تفصيلية في دراسة بعنوان "الرحلة في مصر"، ترجمها إلى اللغة الفرنسية جاك ماسون نقلا عن الأصل الذي كتبه ڤابري باللغة اللاتينية.

فعندما زار الأب ڤابري القاهرة عام ١٤٨٣ رأى "في شوارعها الفوانيس بمختلف أشكالها وألوانها، يحملها الكبار والصغار"، وتحدث عن مهنة المسحّر (المسحراتي) الذي يجوب القاهرة ليلاً ويُنادي على الناس ويُوقظهم لتناول وجبة السحور ووصفه ڤابري قائلاً: "يمر ليلاً في الشوارع ثلاث مرات يدق على طبلة وينادي على الناس كل واحد باسمه".

وقد حرص بعض هؤلاء الرحالة على استئجار غرفة في شارع رئيسي، ليتمكن من متابعة الاحتفالات بهذا الشهر. وقد وصف الفرنسي: (فيلامون) عام ١٥٨٩م بعض مظاهر الاحتفالات بهذا الشهر، مثل مواكب دراويش الصوفية وحلقات الذكر، والمساجد المضاءة وزحام الأسواق، ومآدب الإفطار التي يدعى إليها الأصدقاء. ويصف المصريون بالكرم. ويستكمل قائلا: (ولديهم عادة جميلة، إذ يجلسون على الأرض ويأكلون في فناء مكشوف أو أمام بيوتهم، ويدعون المارة إلى الطعام في صدق وحرارة).

"رؤية الهلال"

يُمكن القول أن أكثر المستشرقين انخراطاً في حياة المصريين كان البريطاني «إدوارد وليام لين» الذي أقام بمصر بين عاميّ (١٨٣٣-١٨٣٥)، حيث شاركهم عاداتهم، وارتدي زيهم، وحضر معهم الصلاة في المساجد، واختار لنفسه اسم «منصور أفندي»، ووصف ليلة رؤية الهلال عام ١٨٣٥م في كتابه الشهير بعنوان "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم"، حدثنا عن ليلة رؤية هلال رمضان عام ١٨٣٥م قائلا: «والليلة التي يتوقع أن تكون صبيحتها صيام، تسمى ليلة الرؤية، فيُرسل عدد من الأشخاص الثُقَاة إلى مسافة عدة أميال في الصحراء حيث يصفو الجو، ليروا هلال رمضان، بينما يبدأ من القلعة موكب الرؤية، الذي يضم المحتسب وشيوخ التجار وأرباب الحرف، والطحانين والخبازين والجزارين والزياتين والفكهانية، تحيط بهم فرق الإنشاد ودراويش الصوفية، وتتقدم الموكب فرقة من الجنود، ويمضي الموكب حتى ساحة بيت القاضي، ويمكثون بانتظار من ذهبوا لرؤية الهلال، وعندما يصل نبأ ثبوت رؤية هلال رمضان، يتبادل الجميع التهاني ثم يمضي المحتسب وجماعته إلى القلعة بينما يتفرق الجنود إلى مجموعات، يحيط بهم «المشاعلية» والدراويش، يطوفون بأحياء القاهرة وهم يصيحون: يا أمة خير الأنام .. صيام.. صيام، أما إذا لم تثبت الرؤية في تلك الليلة، يكون النداء "غدا متمم لشهر شعبان.. فطار.. فطار"، ويمضي المصريون وقتًا كبيرًا في تلك الليلة يأكلون ويشربون ويدخنون، وترتسم البهجة على وجوههم كما لو كانوا تحرروا من شقاء يوم صيام، وتتلألأ الجوامع بالأنوار، كما في الليالي المتعاقبة، وتُعلق المصابيح عند مداخل المآذن وأعلاها."

وكان علماء الحملة الفرنسية في مصر (١٧٩٨-١٨٠١) قد سبقوا وليام لين في تقديم صورة حية لحياة المصريين، من بينهم العالم "ادم فرانسوا جومار" في دراسته بعنوان "وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل" التي وردت ضمن مجموعة دراسات موسوعة "وصف مصر"، إذ تحدث عن صورة تفرّد بها عن سائر ما هو مألوف في كتابات الرحّالة أنفسهم قائلا: "يبدأ شهر رمضان مع ميلاد هلال هذا الشهر، ويعلن عن ذلك موكب احتفالي يسبق بداية الشهر بيومين، ويتكون هذا الموكب من حشد من الرجال يحمل بعضهم مشاعل، وبعضهم يحمل عصي، ويقومون بأداء حركات مختلفة بها. ويفتتح سير الموكب عازفون يمتطون ظهور الجمال ويضربون على طبل معدنية، بينما يمتطي عازفون آخرون ظهور الحمير ويضربون كذلك على طبل أو يعزفون على بعض آلات النفخ الأكثر صخبًا."

كما سجّل الرسام الفرنسي جان ليون جيروم الذي يُعد أحد أبرز المستشرقين الذين أتوا إلى العالم الإسلامي ونقلوا حياة العرب والمسلمين خلال القرن الـ ١٩، الكثير من الأجواء الرمضانية التي عاشها العرب والمسلمون في مواسم العبادات. ولا تزال لوحته "الصلاة فوق السطح في القاهرة" التي رسمها عام ١٨٥٦ واحدة من أبرز اللوحات الاستشراقية المشهورة حتى اليوم. والتي يقف فيها إمام يصلي بالناس صلاة غير الفريضة؛ حيث نرى كل رجل من المصلين يؤدي حركة مختلفة. كذلك يظهر هلال الشهر الهجري واضحا في سماء اللوحة، كما يظهر أيضا رجلان يؤذنان للصلاة على قمة المئذنتين الواضحتين في الخلفية، والأجواء التي يصنعها الظل والنور تُظهر أنها صلاة المغرب، حيث السماء بين لونين غروب الشمس وبدايات الظلام.



"ليلة القدر"

يبدأ المصـــريون في الثلث الأخير من شـــهر رمضـــان الاستعداد لاستقبال عيد الفطر بعادات خاصة تتداخل مع عادات الناس في رمضـــان، فضـــلاً عن إحياء الأيام العشر الأواخر من شهر رمضان لرصد ليلة القدر، وعن هذه الأيام أفرد وليام لين جانبًا مميزًا قدم فيه صـــورة عن عادة المصريين خلالها، قائلاً:

"يحيي الأتقياء المتدينون آخر عشـــرة أيام من رمضـــان في نهاره ولياليه في جامع الحسـين وجامع السـيدة زينب (في القاهرة)، وتُعرف إحدى هذه الليالي وهي ليلة السابع والعشـــرين منه عامة بليلة القدر...ويقضـــي هذه الليالي بخشوع كبير بعض الأتقياء الذين لا يستطيعون التأكد أي من الليالي العشـــر في رمضـــان هي ليلة القدر، ويجعلون أمامهم وعاء فيه ماء مالح يذوقون طعمه ليروا إن بات حلو المذاق فيتأكدون أن تلك الليلة هي ليلة القدر."

ويظل شهر رمضان سنوياً دافعًا لتجلي الكثير من المعاني في الذاكرة المصـــرية من عبادات وفروض دينية، باعثاً للكثير من الإبداعات الفنية والمظاهر الاحتفالية، التي أصبحت وثيقة الصلة بروح الشـهر وعلامته الدالة عليه في مصـــر وشـــوارعها، وإقامة الولائم وترديد الأغنيات وانتشار موائد الإفطار الجماعية وإحياء الأمسيات الدينية والفنية.

" -عادات المصريين في شـهر الصـوم:" أما عن عادات المصريين في رمضان فقد صورها الفرنسي "دي فيلامون" الذي زار مصـــر في القرن الســـادس عشـــر عام ١٥٨٩، وتطرق في تفاصـــيل رحلته التي نشـــرها بعنوان "رحلات السـيـر دي فيلامون" إلى المواكب الدينية وحلقات قراءة القرآن في رمضـــان، وزينة المســـاجد وعمارتها، وتحدث عن ظاهرة أشبه بما يُعرف حاليًا باسـم "موائد الرحمن" الخيرية التي عرفتها مصـــر على مدار عصـــورها الإســـلامية حتى الآن، قائلاً: "يجلس (المصـــريون) على الأرض يتناولون الطعام في الفناء المكشـوف أو أمام منازلهم، ولديهم عادة دعوة عابري الســـبيل إلى مشـــاركتهم الطعام بصـــدق وحفاوة."

ويتحدث الفرنسـي دو شـابرول في دراسـته المسـتفيضـة بعنوان "دراسـة في عادات وتقاليد سـكان مصر المحدثين" ضـمن دراسـات كتاب "وصـف مصر" عن كيفية قضـاء فئات المصـــريين نهار رمضـــان وتعاملهم مع فترة الصـــيام الشـاقة قائلاً: "يسـعى كل شـخص في النهار قدر طاقته كي يُنهي عمله في أسرع وقت، ليُخصص بضع ساعات للنوم، فترى الفلاح راقدًا تحت نخلة بعد أن أنهى في فترة الصباح عمله، وترى التاجر يرقد في دكانه، والعامة ممدين في الشـــوارع بجوار جدران مســـاكنهم، بينما الغني راقدا بالمثل، نعسان ينتظر على أريكته الفاخرة الفترة التي تسبق غروب الشـمس، وأخيرًا تأتي السـاعة التي طال انتظارها، فينهضـون على عجل ويهرع كل شـخص للحصـول على مكانه".

أما عن النســـاء فيصـــف لنا دو شـــابرول عاداتهم قائلاً: "تتجمع النساء في شرفات منازلهن لرؤية غروب الشمس، وتعلن الأغنيات حلول وقت المســـرات ووقت الطعام، وتدوي كل المساجد بأصوات المؤذنين الجادة تنادي الناس للصـــلاة، وتحدث همهمة واضـــطراب عام، فيتفرق الناس على الفور، وتنفض الجماعـات ويتبعثر الجمع إما إلى المقاهي وإما إلى البيوت والمساجد والميادين العامة، ويأكل كل شخص بشراهة".

وبعـد الإفطـار يقول دو شـــابرول: "يعقـب الطعـام الاحتفالات والألعاب، وتســـيطر الخلاعة الجامحة على ضـروب اللهو... بينما تظل المساجد مضاءة حتى بزوغ النهار، ويقضي أفاضل الناس ليلهم في حديث نافع، لكن الجمهور يذهب إلى المقاهي حيث الرواة يقصون بحماسة ملتهبة مغامرات عجيبة تخلب الألباب بطريقة فريدة".

أما "كلوت بك" الفرنسي، صديق محمد علي باشا ومؤسس أول مدرسة للطب في مصر، والذي سجل في كتابه الشهير (لمحة عامة إلى مصر) انطباعاته عن مصر وشعبها في ذلك العصر الذي شهد تأسيس الدولة الحديثة في مصر، فيقول عن مظاهر شهر رمضان: "صوم رمضان... من الفرائض الأساسية في الدين الإسلامي... وشهر رمضان لا يقع في فصل معين من السنة، وإنما يطوف بها جميعاً، وتتم دورته في كل ثلاث وثلاثين سنة مرة... وعلى خلاف ما كنا نعتقد في أوروبا، بأنه شهر ترفيه وتفرغ للملذات!... بينما هو شهر الحرمان من الشهوات. ولا يقتصر الصوم على حرمان النفس من الطعام والشراب طوال النهار، بل يمتد أيضاً ليشمل التدخين والنشوق والروائح العطرية... ويعفى الحوامل والمرضى والمسافرون من الصوم، غير أن بعض الأتقياء في حالة المرض أو السفر لا يأخذون هذه الرخصة.. وقد شهدت بنفسي مرضى بالحمى يأبون تعاطي الدواء.. مؤثرين الموت على مخالفة واجب الصوم، ويتناول الفقراء إفطارهم بنهم وشهية أما الأثرياء فيكتفون بوجبة خفيفة، قليل من الخبز أو الحلوى أو الفاكهة، وقد يتناول بعضهم أطباقاً سهلة الهضم كالمهلبية ثم يدخنون (الشيشة) مع قدح قهوة أو كوب شربات إلى أن يصلوا العشاء، ثم يتناولوا وجبة الإفطار الدسمة! وتتنوع أمسيات رمضان في شوارع القاهرة، ما بين مشاهدة ألعاب الحواة أو الانضمام لحلقات الذكر حول ضريح أحد الأولياء، بينما يتجمع البعض في ممرات حديقة (الأزبكية) في ضوء القمر، ليستمعوا إلى فرق الموسيقى التركية، ومشاهد (خيال الظل) و(الأراجوز) وتناول الكعك والذرة المشوية والقهوة وعصائر الفاكهة".

أما عم مزاج المصريين خلال أيام الصيام فقد صوره لنا ادوارد لين مشيرًا إلى اضطراب الحالة المزاجية بحسب توقيت اليوم قائلاً: "يكون المسلمون طوال صومهم في النهار نكدي المزاج، ويتحولون في المساء بعد الإفطار إلى ودودين محبين بشكل غير عادي.. ويتناول المسلمون فطورهم عامة في منازلهم ويمضون بعده بساعة أو ساعتين أحياناً إلى منزل صديق، ويرتاد بعضهم، لاسيما أبناء الطبقات الدنيا، المقاهي في المساء، فيعقدون لقاءات اجتماعية أو يستمعون إلى رواة القصص الشعبية، ويقيم بعض علماء الدين في القاهرة حلقات ذكر في منازلهم كل ليلة طوال هذا الشهر."



"المسحراتي"

وكما في الكثير من بلدان الشرق، تتميز مصر بمهنة "المسحّر أو (المسحراتي)" الذي يتولى إيقاظ الناس من النوم لتناول وجبة السحور قبل صلاة الفجر استعدادًا لصيام يوم جديد، ويقدم العالم الفرنسي "جيوم أندريه فيوتو" تعريفًا بالغ الدقة لهذه المهنة في دراسة بالغة الأهمية تناول فيها بالفحص الدقيق "الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين" منشورة ضمن دراسات "وصف مصر" قائلاً: "هم نفر لا يسمع الناس غناءهم إلا خلال شهر رمضان، ويسمون بالمسحّرين، ويوصف بهذا الاسم أولئك الذين يعلنون كل يوم طيلة شهر رمضان، عن اللحظة التي يوشك فيها نور النهار الجديد أن ينبلج من ظلام اليوم المنصرم، وهي تسمى في اللغة العربية بوقت السحور، وهي أيضا الفترة التي ينبغي أن تتم فيها آخر وجبات الليل، لذلك يطلق على هذه الوجبة (السحور) وبعد انتهاء الوجبة لا يسمح للمسلمين أن يشربوا ولا أن يأكلوا، حتى مغرب شمس اليوم التالي، وهم ملزمون بمراعاة هذه الفترة بعفة صارمة".

كما يستفيض وليام لين في وصف آخر لنشاط المسحّر وطريقة أداء عمله في فقرات مطولة نورد مقتطفات منها قائلاً: "يدور المسحرّون كل ليلة في شهر رمضان يطلقون المدائح أمام منزل كل مسلم قادر على مجازاتهم، ويعلنون في ساعة متأخرة فترة السحور. ولكل منطقة في القاهرة مسحّرها الخاص الذي يبدأ جولته بعد ساعتين تقريبا من المغيب، ويحمل في يده اليسرى ما يعرف بطبلة المسحّر، وفي يده اليمنى عصا صغيرة أو سوطًا يضرب به عليها. ويرافقه صبي يحمل قنديلين في إطار من أعواد النخيل، ويتوقفان أمام منزل كل مسلم إلا الفقراء."

ويضيف: "يتجول المسحّر قبل الإمساك بساعة ونصف تقريبًا ليوقظ الناس أو يذكرهم بتناول الطعام في المنازل التي أُمر بإيقاظها، فيقرع الأبواب وينادي حتى يسمع سكان المنزل نداءه، ويفعل بواب كل حي الشيء نفسه في كل منزل في الحي.

ولا يفرط بعضهم في الطعام عند الإفطار، ويتركون اللذائذ والأطايب الدسمة لفترة السحور، وقد يقلب بعضهم هذه القاعدة أو يساوون بين الوجبتين."

ويصف أندريه فيوتو المسحراتي أنه "لا يجوب أي من المسحّرين سوى الشوارع الداخلة في نطاق حيّه هو، ولذلك فلكي يسمح له بالقيام بهذه المهمة، فإنه ملزم بدفع رسوم (إتاوة) إلى الشخصية المنوطة بحراسة الحي...

وبعد أن يتلو المسحّر بعض الأدعية الدينية، يبدأ بإنشاد بعض الأشعار، ويقص حكايات شعرية، ويتمنى أمنيات سعيدة لرب البيت، مستصحبا في ذلك كله طبلته الصغيرة، التي يدقها على شكل فاصلات تتكون الواحدة منها من أربع دقات متعاقبة".

وقد انفرد البريطاني "وليام لين" في تقديم مشهد نسائي لم يتحدث عنه الفرنسيون، أو ربما لم يسعفهم الوقت لرؤيته قائلا: "تضع المرأة في العديد من منازل الطبقة المتوسطة في القاهرة قطعة معدنية صغيرة (أو خمس فضات أو قرشا أو أكثر) في قطعة من الورق، ويقذفونها من النافذة إلى المسحّر بعد أن تكون أضرمت النار في الورقة حتى يرى مكان سقوطها. فيتلو المسحّر حسب رغبتها أو بملء إرادته سورة الفاتحة، وقصة قصيرة غير موزونة القافية ليسليها كقصة (الضرتّين) وشجارهما. وتبعد بعض قصصه عن باب اللياقة والاحتشام، ومع ذلك تسمعها النساء القاطنات في المنازل ذات السمعة الطيبة."

ويظل شهر رمضان سنويًا دافعًا لتجلي الكثير من المعاني في الذاكرة المصرية من عبادات وفروض دينية، باعثًا للكثير من الإبداعات الفنية والمظاهر الاحتفالية، التي أصبحت وثيقة الصلة بروح الشهر وعلامته الدالة عليه في مصر وشوارعها، وإقامة الولائم وترديد الأغنيات وانتشار موائد الإفطار الجماعية وإحياء الأمسيات الدينية والفنية.





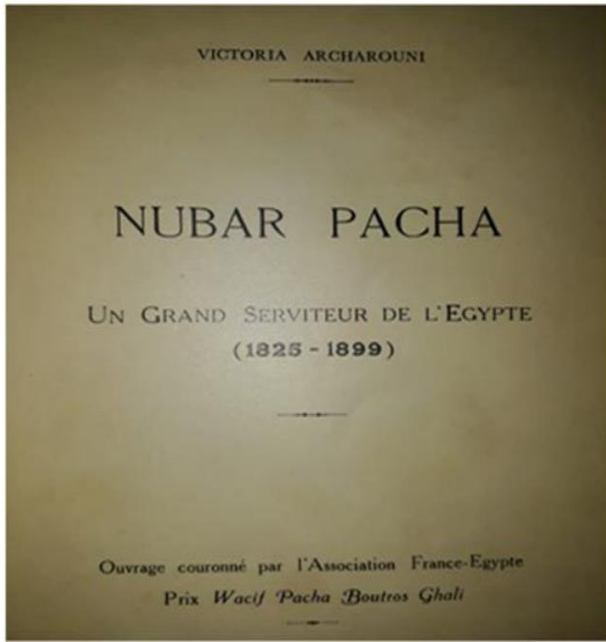
نوبار باشا خادم مصر الكبير (١٨٢٥ – ١٨٩٩م)
(المسكوت عنه فى مذكرات نوبار) (٣-٦)
للسيدة / فيكتوريا أرشاروني

ترجمة: جاروطبقيان

وزارة نوبار الثانية (٨يناير ١٨٨٤ – ٩يونيو ١٨٨٨) – عصيان السودان المسلح– السير. أفيلين بارينج E. Baring: القنصل العام – استقالة شريف باشا – استدعاء نوبار لرئاسة مجلس الوزراء يناير ١٨٨٤ – مشاحنات نوبار / كليفورد للويد– Clifford Lloyd قضية البوسفور المصرية – احتلال الخرطوم ومقتل جوردن – الأزمة المالية ومؤتمر لندن .

كانت السنوات التي انقضت ما بين عامي ١٨٨١ و ١٨٨٦ بالنسبة لمصر سنوات رهيبة. لم تكن أمطار، بل سيل غزير من المصائب! بعد الخروج من حرب، ووباء كوليرا عنيف عنف غير مسبوق يحصد أرواح أكثر من ١٠٠٠٠٠ شخص ثم تعافي سيء بعد الرعب الناجم عن هذا الطوفان، كان على المصريين مواجهة تابعات الحرب في السودان. وانتفضت السودان على خطى مهدي محمد أحمد. حركة كانت وليدة تطلعات ظلت منذ وقت طويل خاملة داخل النفوس السودانية، تسعي وراء هدفين: الأول ديني، والثاني سياسي. تنقية العقيدة القرآنية، نشر الإسلام بين الأمم، وفي الوقت نفسه تحرير السودان من التدخلات المصرية – التركية في شئونها. انتشر التمرد بسرعة البرق. تتابعت الكوارث العسكرية لتلحق بما قبلها من كوارث وكانت القاهرة تتلقي كل يوم برقيات معلنة عن مصائب جديدة.

أدرك الجميع أن التمرد لم يكن مجرد عصيان محدودة لكنها كانت انتفاضة هائلة لشعب بأسره. قررت الوزارة برئاسة شريف باشا تمركز القوات المصرية حول الخرطوم والتشبث بتلك النقطة الاستراتيجية في انتظار ظروف مواتية بشكل أفضل.


VICTORIA ARCHAROUNI

NUBAR PACHA

UN GRAND SERVITEUR DE L'EGYPTE
(1825 - 1899)

Ouvrage couronné par l'Association France-Egypte
Prix Wacif Pacha Boutros Ghali

وفي ظل تلك الأحداث، يصل السير أفلين بارينج (اللورد كرومر فيما بعد) من الهند حيث كان يخدم لدي المندوب السامي اللورد نورثبروك Northbrook لاستلام منصبه كقنصل عام بدلاً من السير إدوارد ماليت Edward Malet كان اختيار مفرح بشكل متفرد.

فالسير بارينج كان عضو باللجنة العليا للتحقيق ومفوض للدين العام وعلى دراية تامة بالشئون المصرية.

بالإضافة إلى أنه كان يملك كل الصفات المؤهلة لشغل هذا المنصب. كان موهوب بشكل رائع من الناحية

الثقافية والأخلاقية، يمزج بين المعرفة واستقامة التفكير وبين الصبر والعزيمة وبين الفطرة السليمة والكياسة. كان أيضاً إدارياً صاحب قدرات كبيرة وخبير مالي بارز. وبدأ بارينج بالاطلاع على الأوضاع: الخزانة خاوية، الجيش ليس له وجود. يتولى بارينج مهام منصبه في الحال. بالرغم من معارضة القصر والوزارة والرأي العام كله يقرر إخلاء السودان بالكامل وإعادة الحدود المصرية لوادي حلفا. وقد تمكن من إقناع حكومة جلادستون Gladstone بأن هذه السياسة هي الوحيدة المبررة ويستلم من اللورد جرانفيل Granville برقية ٤ يناير ١٨٨٤ الشهيرة.

"... بالنسبة لكل المسائل المهمة التي تتعلق بالإدارة الجيدة لمصر أو تتعلق بأمنها، طالما دام الاحتلال المؤقت للبلاد بواسطة القوات البريطانية، وأن حكومة جلالتها عازمة على أن ينصاع الخديوي لنصائحها. والأمر نفسه يسري علي الوزراء ومحافظين الأقاليم. بالتالي من منهم يرفض الانصياع لتلك التوجيهات سيكون عليهم الاستقالة من وظائفهم." أُحيط شريف باشا رئيس مجلس الوزراء علمًا بالبرقية. ورفض الاخلاء التام للسودان وتقدم باستقالته في اليوم نفسه. حاولوا اقناع رياض باشا لكنه رفض للأسباب نفسها. " لم يكن هناك في تلك الفترة فوق سماء السياسة المصرية سوي ثلاث نجوم من الطراز الأول: رياض وشريف ونوبار.

ولما كان اثنين منهما خارج القضية، تبقي نوبار الذي عرض عليه رئاسة الوزراء. وكان مقيم في باريس منذ عام ١٨٧٩. وبدأ يفكر وتردد، ودار فى ذهنه بعض التساؤلات: هل هناك اقتناع لدي الوالي بضرورة الإخلاء وهل سيساند وزيره؟

هل سيكون في المقدور إبرام قرض لإنعاش المالية؟ يتم التأكيد عليه بهذا الضمان المزدوج. وبعده ترك فرنسا وجاء لشغل كرسيه" لأنه في النهاية، كان يحب السلطة كما تُحَبْ العاشقة التي نستعيدها بمزيد من الرغبة ومزيد من الأشواق بعد كل غياب عنها، سواء برغبتنا أو غصب عنا."

هل هذا هو كل ما في الأمر؟ لا؛ فبجانب الطموح، كان هناك دافع أخر يُغريه على قبول مسئوليات السلطة في لحظة من اللحظات الحرجة جداً بتاريخ مصر. كان لديه في قلبه ذلك الشعور بالكبرياء المجروح الذي بحاجة إلى المداوة. كان يشق عليه أن يختفي من على مسرح السياسة مثل ممثل سيئ وسط استهجان المتفرجين... وكان يفكر في أنه هذه المرة سيتمكن من تطبيق الإصلاحات التي دشنها أثناء وزارته السابقة، باختصار كان يريد ترك بصمتة العبقرية على ذلك البلد الذي كن له حب منزه عن كل غرض. واحتفظ في وزارته بكل أعوان شريف باشا. يتلقى نوبار وهو لا يزال بالكاد يستعد للنزول من السفينة زيارة مراسل جريدة التايمز الشهير السيد/ إدوارد ديسي Edward Dicey. " فخامتكم، هل أنتم من أنصار الإخلاء؟"

" لا على الإطلاق! لقد تكلف إخضاع السودان الكثير من الدماء والمال وليس من السهل أن يتصور أي مصري أن يتم التخلي عنها بمثل تلك اللامبالاة. أما بالنسبة لي، فلدي أسبابي الخاصة التي تجعلني أتمسك بها: أن أثنين من أفراد عائلتي قدموا حياتهم من أجل الحفاظ على تلك الأقاليم للتاج. شقيقي الكبير أراكيل بك نوبار أحد أقدر حكامها وتوفي في الخرطوم عام ١٨٥٨م ضحية حمي أصيب بها أثناء تفقده لأعالي النيل. ومن بعده نجله أراكيل حاكم مصوع، استشهد على ساحة القتال أثناء الحملة على الحبشة، ليموت ميتة الأبطال. ومع ذلك إذا كنت قد قبلت مهمة تولي رئاسة الوزارة الراهنة وهو أمر لا يسر على الاطلاق، فهذا لأنني أعتقد أن الإخلاء – هذا الشر الذي لابد منه – يمكن وصفه على أنه بمثابة حريق غابات سأتمكن من المضي قدمًا وسطها وفي الوقت نفسه الحفاظ على مصالح مصر العليا."

كان نوبار قد بلغ لتوه الستين من عمره. طوله فوق المتوسط، رشيق بالرغم من "كرش" بسيط يلبس الزي الأوروبي الأنيق؛ وفي مصر كان يضع على رأسه "الطربوش" الرداء الوطني. أسود الشعر والعينين وصاحب سمات متناسقة وظريفة وابتسامة تحمل كثير من الجاذبية. نظارات حانية وصوت رخيم ونكتشف أن أسلوبه يتميز بالأدب الرفيع الذي لا يُمكننا اكتسابه سوي بالتردد على البلاط. كان نوبار صاحب أرفع الثقافات الأوروبية.

كان ضـليع في الآداب والتاريخ والحقوق؛ بوصـفة وزير للزراعة وبوصـفه من كبار ملاك الأراضـي كان على دراية تامة بكل المسائل الزراعية.
كان يمتلك ناصية اللغة الفرنسـية بشـكل ملفت، لكنه كان يقرأ ويكتب عدة لغات أخرى أوروبية. وهب ببلاغة طبيعية، من خلال أدواره الروحية اللاذعة العميقة، جعل جمهوره تحت تأثير سحر كلماته. كان عقله المرن يستمتع في التحليق بضـربات من الأجنحـة القويـة إلى قمـة التكهنات الفلسـفية أو التاريخية؛ لقد حلق؛ بآراء في مجملها، واضحة ورائعة وأصلية. كان يستشف في الحال لـب أي موضـوع يطرح وفي حين يتوه الأخرين بين التفاصـيل كان ينطلق هو إلي الجوهر. مولود دبلوماسـي، كان لديه موهبة الإقناع. كان الحديث معه متعة لدرجة أن حتى خصـومة السياسـيين لم يكن في وسـعهم ألا أن يلتفتوا إليه. لكن بين طيات ذلك الشـكل المهذب وتلك الأخلاق اللطيفة كانت تختبئ شـخصـية حازمة، نشـطة، واعتزاز بالنفس لا يلين أبـداً. وكتـب السـيـد دو ليون نوبار:" لم التق خلال مسيرتي الطويلة في العمل السياسي برجل صـاحب شـجاعة أدبية فى البلاط أسـوء منه." لم يكن هذا التصريح من قبيل المديح، لأن نوبار كان يعيش إلى جوار حكـام اعتـادوا أن يعتبروا رغبـاتهم أوامر. إن صراحته التي تصل أحياناً إلى حد القسوة، كانت بشـكل خاص محل خشـية موظفي القنصـليات الذين لم يكن يدخر وسعًا لانتقاده.
كـان طيب القلب وكريم. كـان يعيش بمنزل شـيـده في الشـارع الذي سمي حديثاً " شـارع إبراهيم" وكان يحمل اسمه من قبل. يتاخمـه منزل أرمني أخر من المشـاهير، ديكران باشـا دابرو، صـهره ووزير الخارجية في ظل عباس حلمي الثاني. ويجاوره قصـر يعقوب أرتين باشـا وزير المعارف العمومية فيما بعد وهو نجل أرتين بك تشـراكيان خليفة بغوص بك يوسـفيان في خدمة محمد علي وعباس حلمي الأول. كان يسـتقبل بمنزله كل يوم جمعة كل من في القاهرة من مشاهير بمساعدة ابنتيه وزوجته الذكية بقدر ما هي خفيفة الظل ولطيفة.
كـانوا يتجـاذبون أطراف الحـديـث، يعزفون الموسـيقي ويرقصـون؛ وكان كل ذلك بالنسـبة لصـحراء الحياة الاجتماعية القاهرية — بحلول نهاية القرن الماضي- مصدر للترفيه الراقي يبحث عنه على الأخص الأوروبيين بشغف. أما بالنسـبة له كانت فرصـة للتعرف على هؤلاء الذين يلعبون الأدوار الرئيسـية على المسـرح المصـري، خاصـة هؤلاء الذين وصلوا مؤخراً من ضباط وموظفين بريطانيين كبار جاءت بهم الحرب إلى مصـر. كان محبوب لدي الجميع، ويتمتع بجاذبية خاصـة لديهم. ولم يكن في ذلك أي حسابات. كان يقدر ويلاطف هذا الشباب الإنجليزي النشـيط، المتحمس، المتعلم ويعمـل بلا كلـل، مفعم بالمبادرة، يدرك مسـئولياته، يتمتعون باسـتقامة ورقي أخلاقي فوق كل الشـبهات، كما أن بعض منهم كانوا فنيين أصـحاب صـيت عالمي. كان يتطلع إليهم وكأنه يقول لنفسـه، ها هم الأوروبيين الذين كان من المفروض أن يستعين بهما كل من سعيد وإسماعيل، هؤلاء هم بحق المعاونون الجديرين بوزير مصلح.
وفى هذا التوقيت لازالت العاصفة كانت تهب بكل ضراوة حول سفينة الدولة والأمواج كانت تضرب جنباتها بعنف. كانت الأخبار الواردة من السودان مقلقة وترد محملة بمزيد من اليأس. تارة ترد أخبار عن فصيلة أبيدت بحد السيف؛ تارة أخري إقليم بأكمله يعلن عن خضـوعه للمهدي. مع نهاية حكم إسماعيل كانت السودان المصرية تمتد من وادي حلفا شمالاً حتى خط الاسـتواء جنوباً ومن وادي حلفا شرقاً حتى الحدود الغربية لدارفور.
لم يبق من تلك الإمبراطورية الهائلة عام ١٨٨٤ سـوي موانئ البحر الأحمر، والخرطوم، وإقليمي بربر ودنقلة .
كان نوبار يرغب في ارسـال عبد القادر باشـا الحاكم السـابق للسـودان، رجل همام ومتمرس من أجل مباشـرة اخلاء القوات المسـلحة والمدنيين. ونصـح بالدفاع عن دنقلة وبربر التي ظل سكانها مخلصين لمصر.
كان نوبار يقول:" إن هذين الإقليمين سـيعملان كدرع لمصر؛ وستوقف سيل المتمردين." وفي الوقت نفسه سوف يتم اسـتخدامهما كمنصـة انطلاق من أجل اسـتعادة السـودان." بالرغم من تلك التنبيهات الحكيمة سـاندت وزارة السـيد جلادسـتون Gladstone ترشـيح الجنرال

جوردون وتبنت السياسة التي يؤيدها القنصل العام. نوه رئيس الوزراء المصري مرة أخري إلى أنه بأن مسألة إرسال جوردون ستكون خطأ جسيم. حاكم من دين وقومية مختلفة وسط شعب مسلم، منتشي بانتصاراته. بالإضافة إلى أن جوردون كان لدية الكثير من الأعداء في تلك البلاد. وعلى أية حال نُصب جوردون حاكم علي السودان (١٨٧٧-١٨٨٠) وكُلف بالقضاء على تجارة الزنوج، وكان لديه اندفاع زائد عن الحد وبعنف وتهور. لم يكن يخشى الضرب بيد من حديد، وأصدر أحكام بالإعدام شنقاً على عديد من بين أكبر وأغني تجار العبيد. جلب عليه ذلك حقد قاتل. هكذا إذن لم يكن مناسباً لهذا المنصب. اقتنع بارينج Baring في البداية برأي نوبار ورفض تأييد تعيين جوردون؛ لكنه رضخ بناءًا على إصرار الوزارة البريطانية.

توقف جوردون بصحبة الكولونيل سيتورات Stewart لبضعة أيام بالقاهرة قبل أن يتوجه إلى الخرطوم. كانت التعليمات التي لديه مبهمة للغاية. فبناءًا على اقتراح مهم للسيد جلادستون Gladstone كان عليه "دراسة الحالة وطرح الدواء" (الاطلاع والابلاغ). والقنصل العام الذي يتمتع بتفكير مستنير وواضح أرسل إليه فى كتابه المزيد من التعليمات بمزيد من الدقة:" تذكروا أن مهمتكم الرئيسية هي العمل بشكل سلمي علي إخلاء السودان والمضي قدماً بأقل الخسائر بين صفوف القوات والمقيمين من الأجانب الذين يرغبون في اللجوء لمصر أقل ما يكون." وفتح من أجل جوردن اعتماد بمبلغ ١٠٠٠٠٠جنية استرليني مع وعد بتوفير المزيد من التمويل في حالة الحاجة إلى ذلك.

كتب اللورد كرومر Cromer عنه في كتابه "مصر الحديثة" الذي أفرد فيه عدة فصول لأحداث السودان: "الجنرال شارل چورچ جوردون، جندي شجاع حتى التهور، مجرد من كل مصلحة، شريف، شديد التدين لحد التصوف، لكنه مندفع، مقاوم لكل القيود، غريب الأطوار وغالباً ما يكون ضحية خياله الجامح."

يصل جوردون للخرطوم، ولكي يؤكد مخاوف هؤلاء الذين يخشون عواقب شخصيته المثيرة للجدل قام بتغير برنامجه. فبدلاً من الاهتمام مباشرة بالمسائل الخاصة بالأخلاء، صمم على إعادة تنظيم السودان، ليس كامتداد لمصر لكن كمجموعة من الولايات الصغيرة المستقلة تحت الحماية الإنجليزية. لما أيقن بعد عدة أشهر أن ذلك البرنامج غير قابل للتحقيق راح يخترع حلول أخري. مراسلات نشطة ما بين الخرطوم والقاهرة ولندن. تضيع للوقت الثمين. استثمر المهدي وأنصاره من هذا التأخير لصالحهم من أجل تضيق الخناق حول الخرطوم .

كما يحدث بإحدى روايات شكسبير التراجيدية، اختلطت الكوميديا مع الدراما، هذا وبينما كان الوضع يتفاقم بالسودان، والضيق يعتصر القلوب عند التفكير في مصير البؤساء المحاصرين، كان يدور بالقاهرة مشهد سخيف وفاضح. منذ الاحتلال، كان الفرنسيين يبدون الاعتراض بشكل مستمر على بريطانيا العظمي وكانت جريدة " البوسفور المصرية" وهي الأكثر انتشاراً بذلك الحين، تهاجمها دون هوادة. كانت تطبع في صفحات ثلاث والرابعة كانت تفرد للغة العربية. كانت الجريدة التي نصبت نفسها حامية حمي المهدي، تنشر أخبار انتصاراته الوهمية منها والحقيقية، وتغذي قلق خطير داخل النفوس. من أجل وضع حد لحملة التحريض تلك، قامت الحكومة المصرية بشطب الصفحة الصادرة بالعربية في ٢٩ فبراير ١٨٨٤. استمرت الجريدة في الصدور بمزيد من الشراسة في تحدي مفتوح للحكومة. لكن عندما نشرت في أبريل ١٨٨٥ إعلاناً للمهدي بالعربية يحرض فيها الشعب المصري علي التمرد، أخطر نوبار القنصل الفرنسي أن الحكومة أصدرت أوامر بإغلاق المطبعة. وناشد إرسال مندوب عن القنصلية ليكون حاضر، وفق للتقاليد، أثناء تشميعها بالشمع الأحمر.

أخيرًا انطلقت الحملة علي وادي النيل. وأبحر ١٢ ألف جندي إنجليزي في النيل باتجاه الجنوب. عن طريق البحر الأحمر تتقدم الكتائب القادمة من الهند وأستراليا وكندا. وتم الشروع في انشاء خط للسكك الحديدية يربط ما بين سواكن والخرطوم. على الجانب الأخر، بطئ قاتل!

حيث أرسل المحاصرون الذين يقتلهم القلق يوم ١٠ سبتمبر وفد إلى القاهرة لاطلاع السلطات على حقيقة الأوضاع.

وأبحر الكولونيل ستيوارت Stewart على رأس وفد من أربعين شخصية من بينهم القنصل الفرنسي على متن سفينة بخارية. لكن السفينة تقع في كمين منصوب لها ويقتل الجميع. في الوقت نفسه كانت الخرطوم تستنفذ ما لديها من مؤن وذخيرة. كانت الأمراض، المجاعة واليأس يهلك السكان. جرحى مستلقين في الشوارع جنباً إلى جنب مع الجثث ضحايا المجاعة. يصاب جوردون بالهزال، متلحف بزيه الأبيض ونظرة ثقة زائفة على الوجه يجوب الشوارع يشد من أزر القوات المدافعة عن المدينة وهو يقول لهم " تماسكوا لبعض أخر من الوقت. الإنجليز سيأتون.. بالتأكيد سيأتون!" في يوم ٥ يناير ١٨٨٥ تستسلم أم درمان وفي يوم ٢٦ من نفس الشهر يبدأ المتمردون في الهجوم الشامل على الخرطوم. يخترقون الدفاعات ويدخلون المدينة، ويجتاحون قصر الحاكم. جوردون كان يقف أمام باب مكتبه مرتديا زيه الأبيض بالكامل كلون شعرة. يحمل سيفه الذي لم يبرح غمده؛ ويمسك بيده مسدسه المحشو بالبارود لن يستخدمه. يتصرف بهدوء وهو ينظر وجها لوجه إلى المعتدين الذين يتكالبون نحوه. يغزر أحدهم حربته بجسد جوردون الذي يترنح ويستند على الباب. يسدد أخر إليه طعنة قاتلة، ينهار على إثرها. وتم إرسال رأسه التي يتم قطعها إلي المهدي؛ أما جسده يسحل حتى حديقة القصر ويترك للجنود ليمثلوا به. تضرم النيران بالمدينة التي تترك للسلب والنهب. أما المتبقين على قيد الحياة يتحولون إلي عبيد. كان هناك بمختلف الحاميات في السودان ما يقرب من ٥٥٠٠٠عسكري مصري. يقدر السير ريجينالد وينجت Reginald Wingate أن حوالي ١٢٠٠٠ منهم قتلوا وعاد ١١٠٠٠ إلى مصر؛ و٣٠٠٠٠ المتبقون لم يُعرف عنهم شيء مؤكد. كان عدد المدنيين من رجال ونساء وأطفال ١٥٠٠٠. ماذا كان مصيرهم التعيس؟ علي من تقع مسئولية تلك الكارثة؟ بالتأكيد ليس نوبار لأنه كان مهمش فلم يتم استشارته أو الاستماع إليه فلم يكن بيده سوي إدانة الاخطاء المرتكبة سواء بقصد أو غير قصد.

يذهب بارينج إلى قول:" الأرمني، هو من تنصل الأمر. وأنه رفض تحمل أي مسؤولية بشأن المسألة السودانية. يرد نوبار:" لماذا على أن أفعل؟ نعم، لماذا؟ ليس أنا الذي يحكم؟ أنا ببساطة أدير مصر من أجل المصريين" من إذن هو المسئول عن تلك المأساة؟ يصرح السير ألفين بارينج Evelyn Baring قائلاً: " إن الصحافة البريطانية التي إذا جاز القول فرضت جوردون على وزارة الخارجية وحكومة جلادستون التي انساقت ورائها. لا يجب على أي حكومة الانصياع للراي العام، إنما عليها أن تكون قدوة لها ونموذج. ثم، أن التردد في اتخاذ القرار من جانب الحكومة أضر بشدة بالحملة على النيل. جاءت القرارات متأخرة جداً، ونفذت ببطيء" دافع السيد جلادستون عن نفسه بمجلس العموم. " ليس لدي لا أنا ولا زملائي نية أن نعتقد أننا معصومين من الخطأ... كانت نوايانا خالصة، شريفة.." أعذار سيئة. لأن النوايا الطيبة لا تكفي بالنسبة لمن هم يديرون مصير الأمم لأن: " أن أخطاء أصحاب السلطة وبال على العامة." لكن بمنتهي الصراحة والشجاعة الأدبية، أعلن القنصل العام عن نصيبه من المسئولية ويقول: "لم يكن يتعين على قبول تعيين جوردون. بالرضوخ لذلك، ارتكبت خطأً لن أسامح نفسي عليه أبداً.. وإذا كان جلادستون قد قبل بالإخلاء، ألم أكن أنا الشخص الذي أوصي بذلك؟". أُسدل الستار على الفصل الأول من الدراما السودانية؛ لكن الوزير كان عليه العمل وسط صعوبات وأجواء يسودها عداء كان لا يزال علي أشده.

أثار الاحتلال البريطاني مشاكل تسببت في نشر شعور بعدم الارتياح بين جميع طبقات المجتمع. كانت الحكومة البريطانية قد تعهدت بسحب قواتها بموجب مؤتمر سبتمبر ١٨٨٢، لكن في الوقت نفسه لم يكن هناك أي بشائر تلوح في الأفق عن هذا الانسحاب. بدأ توفيق باشا يشعر بالقلق وأخذ يصب جام غضبه على "رجل الإنجليز" نوبار. ثم كان هناك المسؤولون، الذين أصيبوا بالارتباك بسبب الإصلاحات التي أدخلت على الإدارة من قبل المفتشين الإنجليز، وأبدوا رغبة واضحة في عدم الامتثال للوائح الجديدة.

أما الباشوات وكبار ملاك الأراضي الذين إلى كانوا حتى وقت قريب هم الذين يضعون القوانين في الريف، لما وجدوا نفوذهم يتقلص بدأوا في التمرد على السلطات. ومن ناحية أخري كان هناك الشعب الذي انتشى ببلاغة عرابي وراح يحلم بعصر فردوسي، لكنه بدلاً من ذلك رأى

عودة الوكلاء الضـــريبيين وجحــافــل المرابين من جميع الجنسيات الذين عادوا إلى مصر في أعقاب قدوم الجيش المنتصــــر، بيد أنه، كان ينبذ الأجانب بشـــكل عام. والإنجليز على وجه الخصوص صب هو الأخر جام غضبه علي رئيس الوزراء العاجز عن حمايتهم. ويُمكننا أن نضيف إلى هذا المشـهد القاتم اسـتياء أهالي الإسـكندرية الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر التعويضات التي وعدوا بها من أجـل إعـادة بنـاء مـدينتهم التي أكلتهـا النيران، كـذلـك اعتراضــات فرنســا المسـتمرة منذ الغاء اتفاقية السـيادة المشـتركة وأخيراً المخاوف الناشـئة عن عجز الموارد المالية اللازمة لمواجهة الالتزامات الداخلية والخارجية للدولة.

كـان في مقـدور الحكومة البريطانية تخفيف تلك الأعباء بأن تقوم هي بنفسـها بتسـديد المال اللازم ولم يتوان نوبار عن الحديث بهذا الشأن. لكن السيد جلادستون لم يكن يتمتع ســوي ببطاقة سـلبية. بدلاً من التحرك، يدعوا إلى مؤتمر للقوي العظمي. يعرض السـير ألفين بارينج الوضـع الميؤوس منه للمالية المصـــرية أمام الوفود المجتمعة بلندن ويطالب:

١ -تخفيض في نسبة الفائدة.

٢ -تعليق فوري لتحصيل أقساط سداد الديون.

٣- التصريح بإبرام سلفة من أجل سد عجز الموازنة، ودفع تعويضات أهالي الإسكندرية والقيام بأعمال الري العاجلة.

لكن معارضـة فرنسـا الشـرسـة أفشـلت المؤتمر. وصـلت الأزمة بحلول سـبتمبر ١٨٨٤ إلى حد أن كلفت حكومة لندن اللورد نورثبروك Northbrook بالقدوم إلى مصــــر لدراســـة الموقف – على الرغم من أنه لم يعد يخفي علي أحد – و بناءًا علي نصـيحة منه أعطت الحكومة لمديري الأقاليم المتضررة (تلك التي كانت عوائدها مخصصة لسداد الديون) وكذلك لرؤســـاء الإدارات بالدواوين والســـكة الحديد أوامر بتوريد عوائد النصـــف الحالي من العام المالي الذي يحين معاده في ٢٥ أكتوبر مباشـــرة للخزانة وليس صـــندوق الدين. اتخذت هذه الخطوة بالمخالفة للقرارات السارية التي كانت بموافقة القوي العظمي، تنظم العلاقات المصـــرية مع الدائنين. بهذه المناســبة، يكتب وزير المالية خطـاب للمفوضـــين على الـدين يبرر فيـه موقفـه: إن الخزانة تمتلك المال اللازم لأقساط الكوبونات.

و المبالغ المؤخرة لا يجب أن تستخدم سوي من أجل ملئ صـــندوق اســتهلاك الدين. أليس من المعقول أن تلجئ مصر لهذا الإجراء بدلاً من الاقتراض بمعدل مدمر لتتمكن من تغطية نفقاتها الجارية، "يرد المفوضـــون:" ربما، لكن احترام المواثيق قبل كل شـيء! "ويسـتدعون رئيس الوزراء وكذلك وزير المالية للمثول أمام المحاكم المختلطة بتهمة الخروج على القـانون وخرق البنود، وأصـــبح علي نوبار الذهاب إلى وزارة الخزانة ليقدم اعتذاراته ويعطي تفسيرات إضـافية. مع ذلك استمرت القضـية في مسارها وحكمت محكمـة الـدرجـة الأولى على الحكومـة بالإدانـة، في حين قامت الأخيرة باسـتئناف الحكم لكسـب الوقت، لأنه في تلك الأثناء عادت جلسـات المفاوضـات الخاصـة بتسوية الشـــئون المالية للانعقاد بلندن. وأخيراً انفكت الأزمة في يوليو١٨٨٥. بموافقة وضـــمان إنجلترا وفرنســـا وألمانيا والنمســا – المجر وإيطاليا وروســيا والســلطان العثماني، تمكنـت مصـــر من إبرام قرض بمبلغ ٩٠٠٠٠٠٠جنيه استرليني بفائدة ٣٪.

في الوقت نفسه قبلت القوي العظمي أن يخضع مواطنيها لكـل الاعبـاء التي تقع على عـاتق المصـــريين. وبالفعل أنقـذت الوزارة، لكن الثمن كـان بعض من الإذلال. مما جعل نوبار يُسر عما بداخله لصديقه ديسي Dicey وهو يشـعر بالضـيق: ويقول له:" ليس كل أيامي وردية، على أن أتحمل تابعات سـياســة لم أضـعها بل أنني أنتقدها دائماً. إذا نجحت هذ السياسـة فإن السلطات البريطانية في مصـر سـتنسـب الفضـل في ذلك إليها؛ إذا فشـلت فاللوم ســيقع على أنا. اعترفوا أن وضـــعي ليس فيه ما يدعو للمرح..." على أيه حال، كانت الخزانة قد امتلأت وارتسمت البسمة على الشفاه.

حصل أهل الإسكندرية على ٤٠٠٠٠٠٠جنية استرليني؛ وتم تخصــــيص ١٠٠٠٠٠٠أخري من أجل أعمال الري والباقي استخدمت لتغطية النفقات الجارية.

على أية حال، بعد شـــعور نوبار براحة البال، أصـــبح يستطيع أن يُكرس نفسه لسياسة بناءةً. وهي إصلاحات المحاكم الوطنية التي كانت تشــغل باله بشـــكل خاص. حيث كان المتشـككين في إسـطنبول والمتخوفين في أوروبا سـبب تقويض الإصــلاحات والمحاكم بدلاً من أن تتمتع بصــلاحيات شــاملة، تمتد على كل المصــريين وكذلك الأجانب، لم تتمكن سوى من النظر في علاقات الحكومة مع الأجــانــب، وعلاقـات المصـــريين مع نفس هؤلاء الأجانب، والخلافات التي تنشـــب ما بين الأجانب من مختلف الجنسيات.



هوية مصر

بقلم: أحمد محمود أبورية

منذ بداية القرن العشـــرين ومع نهاية الإحتلال البريطاني لمصر، برزت العديد من الأسئلة حول الهوية المصرية، تلك الفترة التي أخذ المصـــريون يبحثون فيها عن هوية مصـــر داخل شـــبكـة معقـدة ومركبـة ومتـداخلـة من ولاءات وإنتمـاءات إســلاميـة وعثمـانيـة وعربيـة وقُطريـة فرعونية(مصـرية) وبحر متوسـطية وشـرقية، منهم البهائيون الذين سعوا أيضاً لتقديم عقيدتهم بمثابة الحل الأمثل لأزمة الهوية المصـرية وقتذاك، ولكن سـرعان ما تنافرت مبادؤها عضوياً مع الجسد المصري ولفظها المصريون.

ونلاحظ بروز القومية المصـــرية وقتذاك وذلك من خلال وسائل الإعلام وعلي رأسها الدوريات الحديثة والتي تحمل إســم (المصـوَّر) التي أصـدرت أول عددها الأول في ٢٤ أكتوبر ١٩٢٤م والتي عاصـــرت بعض الأحداث المتعلقة بالهوية المصـــرية وكان لها دور في إبراز الهوية المصـــرية الفرعونية علي أغلفتها مثل قناع الملك توت عنخ آمون الذي اكتُشفت مقبرته عام ١٩٢٢م، ومجلة (مصر الحديثة المصـــورة) أصـدرت عددها الأول في أكتوبر ١٩٢٧م، لتظهر أغلفتها بالمناظر الفرعونية التي تشـــير إلي القومية والحضـارة المصـرية القديمة، لتبرز الحضـارة المصـرية القديمة من خلال احتوائها علي صور لبعض الآلهة المصرية القديمة وطبقات المجتمع المصـري القديم المختلفة، مؤكدة علي أن لمصـر نظاماً إقليمياً مسـتقلاً من زمن المصـريين القدماء، معبرة عن وحدة المصريين، فهم أول من أسسوا دولة قومية منذ أكثر من خمسـة آلاف سـنة، وظلت محتفظة بهويتها



المميزة لها رغم وقوعها تحت الإحتلال الأجنبي على مر التاريخ، ومع إختلاف الأديان تضـــاربت الأقوال والآراء حول الهوية المصـرية فنجد من ينسـب لمصـر هوية عرقية أو دينية أو ثقافية أو حضـــارية، فقد إحتوت تلك الدوريات على مجموعة من الصـــور التي تظهر لنا طرز وأنواع مختلفة من ملابســه ســواء لمختلف الطبقات الاجتماعية المصـــورة علي جدران المقابر والمعابد، وتبرز الاختلافات بين الزي الملكي الذي كان أغلي

الأزياء وأثمنها وكان يحلي بزخارف نسـجت بخيوط ملونة بالإضافة إلي النمس وهو غطاء الرأس والتاج الملكي، وزي الكهنة كان عبارة عن رداء طويل من جلد الفهد يلفه الكاهن هو جسـده، ويعلق الجزء العلوي أعلي الكتف، وزي العمال والحرفيين الذين كانوا يرتدون النقبة القصـيرة ويختلف عن زي السيدات والخادمات الذي كان يظهرهم برداء حابك طويل، بالإضافة إلي بعض القلائد والأساور، هذا غير الملابس المخصـصـة للآلهة وبعض الكهنة، أما النعال فقد صـنعت جميعاً طبقاً لنموذج موحد فطرف النعل الأمامي معقوف مع وجود لسـان بين إبهام القدم والإصـبع الثاني، وقد إهتمت مجلات تلك الفترة بإبراز هذه التفاصيل الدقيقة في لغة خطابها للتأكيد علي الهوية المصرية.

وعلي سـبيل المثال لا الحصـر ممن يحاولوا طمس الهوية الأصلية للمصريين وتعريبها، منذ قيام المسلمين بفتح دول شمال أفريقيا لنشـر الإسـلام فلماذا تم تعريب القيم والعادات والتقاليد لغير العربي في المأكل والملبس كأن تلك العادات العربية جزء لا يتجزأ من الدين! فالأديان لا تُعد هوية لأي شعب من الشعوب، فالشعب العربي كان موجوداً بهويته قبل ظهور الإسـلام أو المسـيحية كعقائد مستقلة عن الهوية العربية حتى في تلك الأراضـي التي نزلت فيها.

والحقيقة أن المصـريين ينتمون إلى هذه الأرض وحضـارتها العريقة قبل أن يكون هناك عرباً! ويجمع المصريون والعرب تاريخ مشـترك لكن مع إستقلال الهوية المصرية عن الهوية العربية، فالمصري المسلم والمصري المسيحي يجمعهم نفس الهوية المصرية، ولكن ليسوا عرب، والمصري الذي يعيش في أوروبا والمصري الذي يعيش في أستراليا له نفس الهوية، لكن المصـري والخليجي المسـلمين والعرب يشـتركون في اللغة والدين ولكن ليس نفس الهوية وبالإسـقاط علي كل شعوب العالم.

وتتكون هويـة أي بلـد من موقعهـا الجغرافي والتـاريخ والعادات الأصـلية كونها الخصـائص المميزة والملازمة للشـعب ينفرد بها وحده وتميزه عن غيره من الشـعوب الأخري، ولا يمكن إعتبار اللغة عنصر من عناصر الهوية، وليس صحيحاً أن كون جميع العرب تجمعهم نفس اللغة أصبحوا بذلك تجمعهم نفس الهوية العربية، وغالبية الشعوب تتكلم بلغات شـعوب أخري مثل الجزائريين (وهي أحـدي الـدول العربيـة) ينطقون الفرنسيَّة.

إن الهوية المصرية لها عوامل عدة تميزها، منها تأصل اللغة المصرية القديمة الهيروغليفية التي لازالت العديد من مصطلحاتها تستخدم في حياتنا اليومية، والعادات المصرية القديمة المتأصلة فعلي سبيل المثال كلمة "إمبو" (ماما عاوز إمبو) وبمجرد أن تسـمع الأم هذه الكلمة تسرع لتحضر الماء لطفلها وهي لا تعلم أنها بذلك تترجم الهيروغليفية، فكلمة "إمبو" كلمة مصـرية قديمة "إبمو" "ibmw" وتحولت إلي "إمبو" لسـهولة النطق، فـأصـل الكلمـة هو ib mw "إب مو" وتعني "عطشان"، وكلمة "بَح" (مفيش فلوس، خلاص بَح)، أصـلها في اللغة المصـرية القديمة pH "بح" بمعني "وصل، جاء، انتهي"، وغيرها من مئات الألفاظ العامية التي لها جذور من اللغة المصـرية القديمة.

فضـلاً عن مرور الكتابة الهيروغليفية بمرحلة مهمة بنهاية العصـر المتأخر مع الإحتلالين اليوناني والروماني لمصـر؛ ظهرت سمات جديدة للغة المصـرية القديمة فيما تعرف بإسـم "الهيروغليفية البطلمية" إتخذت من خلالها طابعها الذي تميز بالثراء اللغوي ويرجع ذلك لدي الكتبة ومهارتهم في توظيف الكم الهائل من الكلمات التي تؤدي نفس المعني، وحرصه على تعقيد لغته وكتابته بشكل معين ليؤكد حفاظه على هويته وتفوقه علي المسـتعمر في تلك الفترة والذي لا يستطيع أن يقرأ كتاباته الهيروغليفية.

أما من الناحية الجغرافية فتقع مصر بقارة أفريقيا ومع ذلك لا تشـبه الأفارقة، وتطل علي البحر المتوسـط ولا تنتمي لـدول حوض البحر المتوسـط كما يقول البعض، فلا تُنسـب لمنطقة بعينها فهي دولة وُجدت لتكون مركزاً حراً غير تابع لأي تقسيم آخر لذلك ترسخت عقيدة الجيش المصـري منذ القدم في حماية الحدود المصـرية لأنها مسـألة تتعلق بالحفاظ على الكيان والهوية المصـرية منذ أكثر من خمسة آلاف سنة وهذا ما ظل يحدث إلى الآن.

والتاريخ والتراث المختلف الذي جلب على مر عصـوره العديد من الحقب المختلفة من جنسـيات وشـعوب وعاداتهم المختلفة تأثر المصريون بتراثهم، ولكن ظل محتفظاً

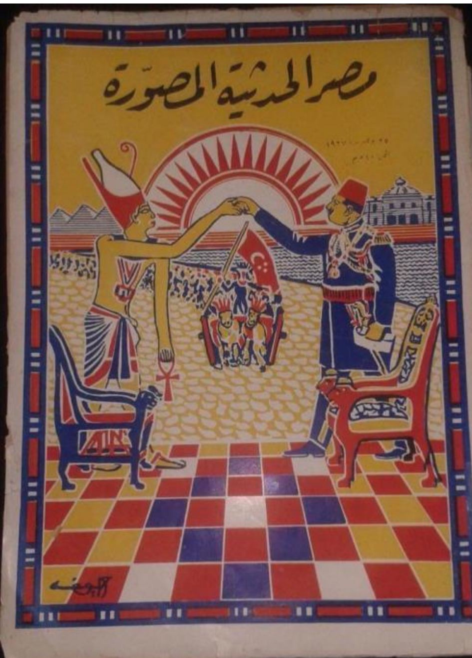
ومحافظاً علي تراثه المصري القديم، لذلك نجد من الطبيعي أن يقوم المصــريون بعد جلاء الإحتلال بالتوعية والتأكيد علي هويتهم، و نشـــر هذا النوع من الوعي الأثري الذى يُعد جانباً مهماً من المعرفة الأساسية للمصريين بحضارتهم؛ حيث تكتمل من خلاله الثقافة القومية، وتبرز الشخصية الوطنية خاصــة بعد خروج الإحتلال من مصــر، وظهور العديد من محاولات طمس الهوية وهو الأمر الذي تطلب ضرورة التصدي لتلك المحاولات بتعميق وعي المصريين في تلك الفترة بحضــارتهم العظيمة وتراثهم الثقافي وإبراز هويته ببعض الرموز والآثار المصرية القديمة.

ومن السذاجة أن هناك البعض مازال يُشكك في حقيقة وسبب بناء الأهرامات بزعمهم أنها ليست مقابر للملوك المصريين، وأن كائنات فضائية أو غيره هم البناة الأصليين للأهرامات، وأن هناك جنســاً عاش علي أرض يدعون (الفراعنة) ثم انقرضــوا وبعدها جاء المصــريون الحاليون، والحقيقة أن المصري هو المصري منذ القدم وهو من أقدم الشــعوب علي وجه الأرض التي لها جذور تاريخية (مصــر أول دولة في التاريخ) وأثرت في الأرض من خلال حضــارتها العظيمة، التي هي مطمعاً لكل من ليس له، أصل ومطمعاً لكل من يحاول طمس أصلها.

فالهوية تعود للأرض ومصــر اســتطاعت أن تُصــهر كل الأجناس، فلم يســتطع أي محتل على مر التاريخ فرض هويته على الهوية المصرية، وذلك لأن مصر لها شخصية فريدة عبقرية لا يوجد لها مثيل كما وصــفها جمال حمدان في موسوعته، " شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان والزمان."









لوحة بعنوان (المسحراتى) للفنانة الأرمنية الشابة "ريتا كيفوركيان"